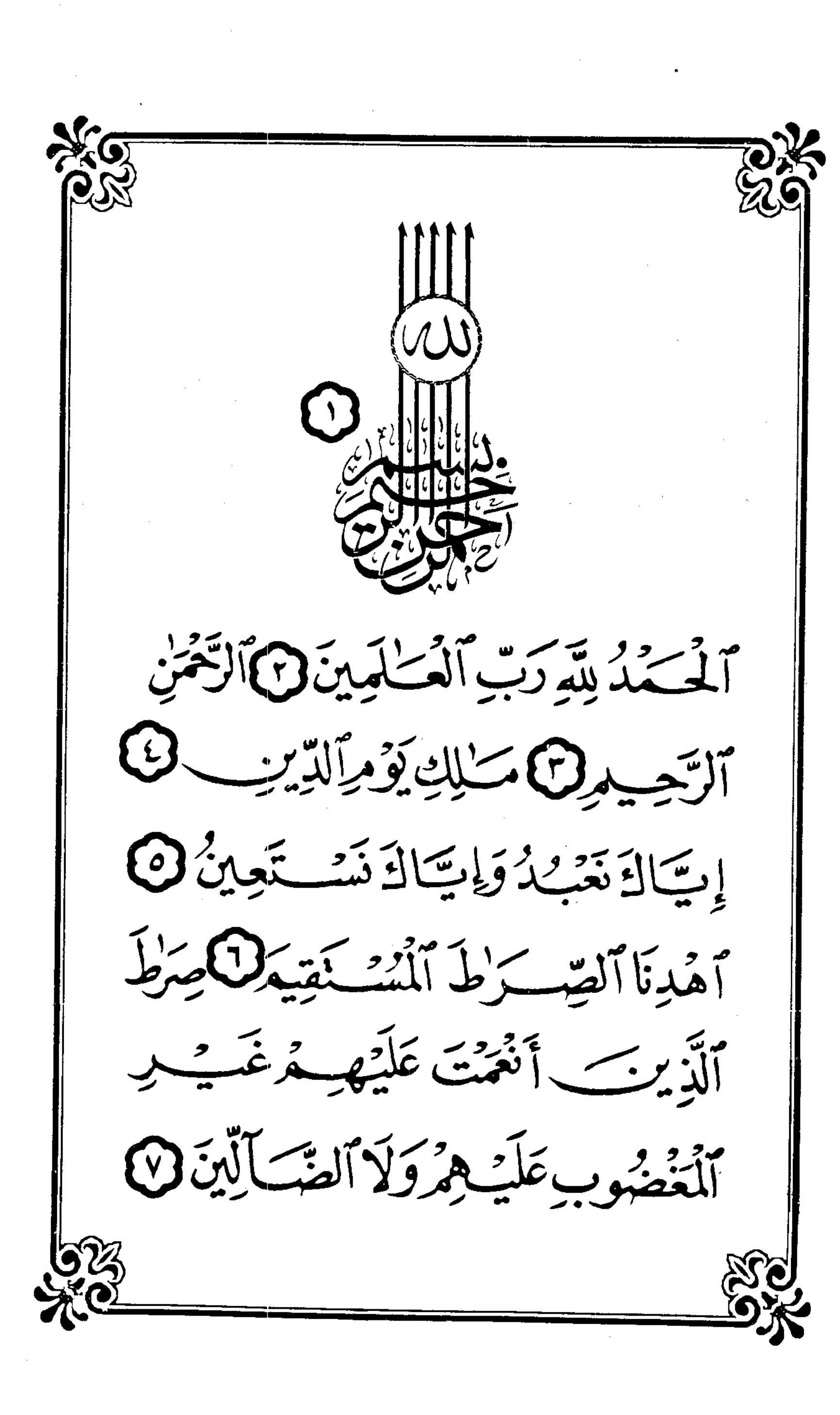
الرسول ﷺ واليهود
وجهاً لوجه
(٨)

محاكمة اليهود

تأليف
الدكتور سعد المرصفي

مكتبة المنار الإسلامية


الله
بسم الله الرحمن الرحيم ١
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحْمَٰنِ
ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ٤
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥
ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ
ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧

مُحاكمة اليهود

الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م






كويت - حولي - شارع المثنى - تلفون: ٢٦١٥٠٤٥ - فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤ - ص.ب: ٤٣٠٩٩ حولي - الرمز البريدي 32045
Kuwait - Hawalli Al-Mothana Street, Tel.: 2615045, Fax: 2636854, P.O Box: 43099 Hawalli, Postal Code No. 32045

مقدمـــة

عرفنا كيف بدأ اليهود الصراع ضد الرسالة والرسول .. وكيف وقفوا في مكة مع المشركين .. وكيف نقضوا العهد والميثاق أكثر من مرة ! وكيف قام بنو قينقاع بالاعتداء على امرأة مسلمة ، ومن ثم كان إجلاؤهم !

وكيف قام بنو النضير بمحاولة قتل الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ، ومن ثم إجلاؤهم!

وكيف قام بنو قريظة بالتآمر مع الأحزاب ضد الرسالة والرسول،ومن ثم كان عقابهم العادل الذى يستحقونه!

وكيف تجمعت فلول اليهود فى خيبر، واجتمع الحقد والعداء اليهودى، ومن ثم كان القضاء عليهم عسكريا!

بيد أن غير المسلمين يحرصون دائما على نشر ظلال من الشكوك حول ما عوقب به اليهود، وكذلك بعض المنتسبين إلى الإسلام و المحسوبين عليه، يثيرون شكوكا حول عقوبة القتل، مع أن تلك العقوبة مطابقة لكل قواعد العدالة التى يلتزمها القضاء والحكم فى كل عصر، حتى فى القرن العشرين، وتتمشى مع كل قواعد الإنسانية، وليس فيها أى تنافر مع إحساسات الضمائر الحية، والوجدانات المستقيمة، فهم خونة لا أسرى حرب، ولا وجه للمقارنة بين تلك العقوبة وما حدث لسكان هيروشيما ونجازاكى، وإعدام ثلاثة آلاف أسير فى فلسطين، وغير ذلك، مما يبين خرافة مدنية القرن العشرين !

وهنا نذكر أن الإصحاح العشرين من سفر التثنية ينص على أن لليهود ضرب جميع الذكور بحد السيف، وامتلاك النساء والأطفال وكل ما يملكون! يقول:

« وإن لم تسالمك أية قرية، بل حاربتك، فحاصرها،وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال، والبهائم وكل ما فى المدينة، وكل غنيمتها، فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك»!

والنص واضح فى الأمر بضرب جميع الذكور بحد السيف، ولم يشترط بلوغا! وهذا يعنى أن اليهود لو نجحوا فى مؤامراتهم، وتم لهم ولأحلافهم التغلب على المسلمين،

وهذا يعنى لما ترددوا لحظة فى إبادة جميع الذكور من المسلمين، وسبى النساء والذرارى ومصادرة كل الممتلكات!

وبهذا يتضح أن كل اعتراض على مانزل باليهود اعتراض على التوراة من باب أولى، وتسليم بأن الدين القيم يجب أن يرجع إليه. وأن يحتكم الناس جميعا إلى شريعته ، وأيما مقارنة فى هذا الصدد خليق بها أن تكشف ـ فى وضوح بالغ ـ أى قانون رفيق عطوف رحيم قدمه الإسلام للناس!

وتسقط شبهة الاسترقاق.. ومع ذلك فإن قصة الرق فى الإسلام صفحة مشرقة فى تاريخ البشرية،حيث أعلنها ثورة غاضبة على هذا الوباء الذى يتساقط فيه الناس، تساقط الفراش فى النار، وحيث كان هذا الحريق أعظم من أن تطفئه نفخة واحدة،والداء أوسع من أن يعالج بوسيلة مفردة، ومن ثم شرع وسائل مكافحة الرق.. وعمل على منع إنشائه وابتدائه، وتصفية الموجود منه وإنهائه .

ومع كل هذا وذاك كان لابد من بيان دور اليهود فى انحطاط الأخلاق على مدى التاريخ، حتى تظهر معاول الفناء، رجاء أن نقاومها بعوامل البناء.

وقد اقتضت منهجية البحث أن يشتمل على ما يأتى:

الفصل الأول: عدالة مثالية.

الفصل الثانى: الإسلام والرق.

الفصل الثالث: دور اليهود فى انحطاط الأخلاق.

والله أسأل: التوفيق والسداد.

الكويت فى ٢ صفر ١٤١٣ هـ — والعون والرشاد.

١ أغسطس ١٩٩٢ م — إنه سميع مجيب ،

سعد محمد محمد الشيخ (المرصفى)

الفصل الأول

عدالة مثالية

تمهيد ـ الطاعنون فى حكم إعدام المقاتلين ـ تحذير لكل مسلم ـ طبيعة اليهود الأبدية ـ سؤال قانونى ـ بنو قريظة فى نظر القانون الدولى ـ خونة لا أسرى حرب ـ هدى النبى ﷺ فى الأسارى ـ بين سكان «هيروشيما» و«بنى قريظة» ـ سكان «نجازاكى» ـ خرافة مدنية القرن العشرين ـ إعدام ثلاثة آلاف أسير فى فلسطين ـ حكم اليهود فى شريعتهم ـ إنصاف سعد بن معاذ ـ قانون العقوبات المصرى ـ القانون الكويتى ـ اتفاق القوانين المعاصرة ـ التقول على الإسلام ـ مقارنة بين قبائل اليهود ـ اعتراض على التوراة من باب أولى ـ تبعات الحكم ـ رأى «مونتجمرى وات» ـ استرقاق نساء وأطفال بنى قريظة ـ السماح لليهود بالإقامة فى خيبر ـ إجلاء عمر لليهود.

تمهيد:

وبعد أن عرفنا موقف اليهود من الرسالة والرسول ﷺ .. وموقف يهود بنى قينقاع.. ويهود بنى النضير.. ويهود بنى قريظة.. ويهود خيبر ـ كما أسلفنا ـ وما ترتب على هذه المواقف من نتائج خطيرة..

لابد لنا من وقفة على أطلال يهود بنى قريظة بالذات، واليهود الذين قتلوا ـ كما يقول الأستاذ باشميل [1] ـ نتناول فيها بالبحث والتحليل هذه الناحية، لإزالة ما يكون قد علق ببعض الأذهان حول حكم الإعدام والمصادرة والسبى.. والذى يبدو لأول وهلة للسطحيين وأعداء الحق ـ وما أكثرهم ـ أن فيه شيئا من القسوة والوحشية!

كما لابد لنا فى هذه الوقفة من مناقشة الطعون ، والرد على الانتقادات التى أوردها البعض بشأن هذا الحكم.

الطاعنون فى حكم إعدام المقاتلين:

وهناك فريقان، لا يمر أحدهما بحادثة عقوبة القتل النازلة بيهود بنى قريظة المقاتلين، إلا ويعلن استنكاره للحكم النافذ فى هؤلاء اليهود، ويصفه بأنه عمل يتسم بالوحشية والقسوة.

الأول: غيرالمسلمين الذين يحرصون دائما على نشر الظلال من الشكوك حول دعوة الإسلام، وإيجاد المطاعن فى الرسالة والرسول.. وأهداف هذا الفريق الخبيثة ومقاصده السيئة معروفة مكشوفة، فهم أعداء أساسيون للإسلام ونبى الإسلام!

الثانى: بعض المنتسبين إلى الإسلام والمحسوبين عليه، الذين لايعرفون عن هذا الدين القيم إلا ماتلقوه فى مدارس ومعاهد وجامعات أعدائه!

كل هؤلاء وأولئك يلمحون ويصرحون أحيانا بأن عملية الإعدام التى تمت بحق المقاتلين على تلك الصورة السريعة، هى عملية قد اتسمت بطابع الوحشية والانتقام الذى يتنافى مع قواعد الإنسانية وروح القرن العشرين المتمدنة لا سيما وأن اليهود قد وقعوا أسرى حرب فى أيدى المسلمين!

---

(١) غزوة بنى قريظة: ٢٣٧ وما بعدها بتصرف .

تحذير لكل مسلم:

وقبل الدخول فى مناقشة هؤلاء الطاعنين فى الحكم الصادر والنافذ بحق يهود بنى قريظة،وقبل رد هذه المطاعن وإبطالها بالحجج المنطقية والوجدانية والقانونية المعاصرة، لابد لنا ولكل مسلم من الإقرار والتسليم ـ صيانة لديننا وحماية لإيماننا ـ بأنه ليس لنا الحق فى أى تعقيب أو مناقشة ـ فضلا عن الانتقاد ـ فى أى حكم بهذه الصورة، وقد عرفنا من رواية البخارى ومسلم وغيرهما أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ قال لسعد :

« لقد حكمت فيهم بحكم الملك » .

وهنا لابد لنا من ذكر هذا المقوم الأول من مقومات العقيدة ونحن نقرأ قوله تعالى

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾[1] .

هذا المقوم من مقومات العقيدة هو الذى استقر فى قلوب الجماعة الأولى من المسلمين استقرارا حقيقيا، [2] واستيقنته أنفسهم، وتكيفت به مشاعرهم ..

هذا المقوم يتلخص فى أنه ليس لهم فى أنفسهم شىء، وليس لهم من أمرهم شىء.. إنما هم خلق الله. يصرفهم كيف يشاء ، ويختار لهم ما يريد .. وإن هم إلا بعض هذا الوجود الذى يسير وفق الناموس العام .. وخالق هذا الوجود ومدبره يحركهم مع حركة الوجود العام ، ويقسم لهم دورهم فى رواية الوجود الكبيرة، ويقرر حركاتهم على مسرح الوجود العظيم.. وليس لهم أن يختاروا الدور الذى يقومون به، لأنهم لا يعرفون الرواية كاملة، وليس لهم أن يختاروا الحركة التى يحبونها، لأن ما يحبونه قد لا يستقيم مع الدور الذى خصص لهم!

وهم ليسوا أصحاب الرواية ولا المسرح، وإن هم إلا أجراء، لهم أجرهم على العمل وليس لهم ولا عليهم فى النتيجة!

عندئذ أسلموا أنفسهم حقيقة لله.. أسلموها بكل ما فيها، فلم يعد لهم منها شىء.. وعندئذ استقامت نفوسهم مع فطرة الكون كله، واستقامت حركاتهم مع دورته العامة ، وساروا فى فلكهم كما تسير تلك الكواكب والنجوم فى أفلاكها، لا تحاول أن تخرج

(١) الأحزاب: ٣٦ .

(٢) فى ظلال القرآن : ٥: ٢٨٦٦ بتصرف .

عنها، ولا أن تسرع أو تبطئ فى دورتها المتناسقة مع حركة الوجود كله.

وعندئذ رضيت نفسوهم بكل ما يأتى به قدر الله، لشعورهم الباطن الواصل بأن قدر الله هو الذى يصرف كل شيء .. واستقبلوا قدر الله فيهم بالمعرفة المدركة المريحة الواثقة المطمئنة..

وشيئا فشيئا لم يعودوا يحسون بالمفاجأة لقدر الله يصيبهم، ولا بالجزع الذى يعالج بالتجمل، أو بالألم الذى يعالج بالصبر. إنما عادوا يستقبلون قدر الله استقبال العارف المنتظر المرتقب لأمرمألوف فى حسه، معروف فى ضميره، ولا يثير مفاجأة ولارجفة ولا غرابة!

ومن ثم لم يعودوا يستعجلون دورة الفلك ليقضوا أمرا هم يريدون قضاءه، ولم يعودوا يستبطئون الأحداث، لأن لهم أربا يستعجلون تحقيقه، ولو كان هذا الأرب هو نص دعوتهم وتمكينها!

إنما ساروا فى طريقهم مع قدر الله، ينتهى بهم إلى حيث ينتهى، وهم راضون مستروحون، يبذلون ما يملكون من أرواح وجهود وأموال، في غير عجلة ولا ضيق، وفى غير منّ ولا غرور، وفى غير حسرة ولا أسف، وهم على يقين أنهم يفعلون ماقدر الله لهم أن يفعلوه، وأن مايريده الله هو الذى يكون، وأن كل أمر مرهون بوقته وأجله المرسوم.

إنه الاستسلام المطلق ليد الحق تقود خطاهم، وتصرف حركاتهم، وهم مطمئنون لليد التى تقودهم، شاعرون معها بالأمن والثقة واليقين سائرون معها فى بساطة ويسر ولين.

وهم ــ مع هذا ــ يعملون ما يقدرون عليه، ويبذلون مايملكون كله، ولايضيعون وقتا ولا جهدا، ولايتركون حيلة ولا وسيلة..ثم لا يتكلفون ما لا يطيقون، ولايحاولون الخروج عن بشريتهم وما فيها من خصائص، ومن ضعف وقوة، ولا يدعون ما لا يجدونه فى أنفسهم من مشاعر وطاقات، ولايحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، ولا أن يقولوا غير ما يفعلون.

وهذا التوازن بين الاستسلام المطلق لقدر الله، والعمل الجاهد بكل مافى الطاقة، والوقوف المطمئن عندما يستطيعون.. هذا التوازن هو السمة التى طبعت حياة تلك المجموعة الأولى وميزتها، وهى التى أهلتها لحمل أمانة هذه العقيدة الضخمة التى تنوء بها الجبال!

واستقرار ذلك المقوم الأول فى أعماق الضمائر هو الذى كفل لتلك الجماعة الأولى

تحقيق تلك الخوارق التى حققتها فى حياتها الخاصة، وفى حياة المجتمع الإنسانى إذ ذاك.. وهو الذى جعل خطواتها وحركاتها تتناسق مع دورة الأفلاك، وخطوات الزمان ولا تحتك بها أوتصطدم، فتتعوق أو تبطئ نتيجة الاحتكاك والاصطدام، وهو الذى بارك تلك الجهود، فإذا هى تثمر ذلك الثمر الحلو الكثير العظيم فى فترة قصيرة من الزمان.

ولقد كان ذلك التحول في نفوسهم، بحيث تستقيم حركتها مع حركة الوجود، وفق قدر الله المصرف لهذا الوجود.. كان هذا التحول فى تلك النفوس هو المعجزة الكبرى التى لايقدر عليها بشر، إنما تتم بإرادة الله المباشرة التى أنشأت الأرض والسماوات، والكواكب والأفلاك، ونسقت بين خطاها ودوراتها ذلك التنسيق الإلهى الخاص..

وذلك هو الهدى بحقيقته الكبيرة ومعناه الواسع.. هدى الإنسان إلى مكانه فى هيكل هذا الوجود، وتنسيق خطاه مع حركة هذا الوجود.

ولن يؤتى الجهد كامل ثماره إلا حين يستقيم القلب على هدى الله بمعناه، وتستقيم حركة الفرد مع دورة الوجود، ويطمئن الضمير إلى قدر الله الشامل الذى لايكون فى الوجود أمر إلا وفق مقتضاه.

ومن هنا يتبين أن هذه الآية القرآنية أشمل وأوسع وأبعد مدى من أى حادث يكون قد نزل فيه هذا المقوم، وأنه يقرر كلية أساسية، أوالكلية الأساسية فى منهج الإسلام. وهذه حقيقة لها وزنها.. حيث إن الدين منهج حياة واقعية.. بتشكيلاتها وتنظيماتها، وأوضاعها، وقيمها، وأخلاقها وآدابها. وعباداتها وشعائرها كذلك..

وهذا كله يقتضى أن يكون للرسالة سلطان (١) .. سلطان يحقق المنهج، وتخضع له النفوس خضوع طاعة وتنفيذ.. والله أرسل رسوله ليطاع بإذنه فى حدود شرعه، فى تحقيق منهج هذا الدين.. منهج الله الذى أراده لتصريف هذه الحياة:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ (٢).

---

(١) المرجع السابق: ٢: ٦٩٦ بتصرف.

(٢) النساء: ٦٤ ـ ٦٥.

ولم يرسل الله الرسل لمجرد التأثر الوجدانى، والشعائر التعبدية.. فهذا وهم في فهم الدين، لايستقيم مع حكمة الله من إرسال الرسل .. وهى إقامة منهج معين للحياة. فى واقع الحياة وإلا فما أهون دنيا كل وظيفة الرسول فيها أن يقف واعظا. لا يعنيه إلا أن يقول كلمته ويمضى.. يستهتر بها المستهترون، ويبتذلها المبتذلون!

ومن هنا كان تاريخ الإسلام كما كان.. كان دعوة وبلاغا.. ونظاما وحكما.. وخلافة بعد ذلك عن رسول الله ﷺ ، تقوم بقوة الشريعة والنظام ، على تنفيذ الشريعة والنظام.. لتحقيق الطاعة الدائمة للرسول.. وتحقيق إرادة الله من إرسال الرسول..

وليست هنالك صورة أخرى يقال لها : الإسلام ، أو يقال لها: الدين ، إلا أن تكون طاعة للرسول، محققة في وضع وفى تنظيم.. ثم تختلف أشكال هذا الوضع ما تختلف، ويبقى أصلها الثابت، وحقيقتها التى لا توجد بغيرها.. استسلام لمنهج الله، وتحقيق لمنهج رسول الله، وتحاكم إلى شريعة الله، وطاعة للرسول فيما بلغ عن الله.

ويجئ ذلك الإيقاع الحاسم الجازم.. إذ يقسم الله سبحانه بذاته العلية، أنه لايؤمن مؤمن، حتى يحكّم الرسول الحبيب المحبوب ﷺ في أمره كله.. ثم يمضى راضيا بحكمه، مسلما بقضائه. ليس فى صدره حرج منه،ولا فى نفسة تلجلج فى قبوله:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

والحكم الصادر فى حق يهود بنى قريظة ــ كما سبق ــ هو حكم الله الذى أراده وارتضاه..

ومع إيماننا الكامل بكل ما ذكرنا، وتسليمنا المطلق بعدالة ذلك الحكم الذى صدر بحق يهود بنى قريظة ونفذ فيهم [١]، فإننا مستعدون لمناقشة المعترضين الطاعنين فى هذا الحكم، وأن نثبت لهم شرعية ووجاهة هذا الحكم ، ومطابقته لكل قواعد العدالة التى يلتزمها القضاء والحكم فى كل عصر، وحتى فى القرن العشرين، وأنه يتمشى كل التمشى مع قواعد الإنسانية، وأن ليس فيه أى تنافر مع إحساسات الضمائر الحية والوجدانات المستقيمة.

طبيعة اليهود الأبدية :

وأول مايطالعنا فى ذلك هو طبيعة اليهود الأبدية، فقد أثبتت مجريات الأحداث منذ

(١) غزوة بنى قريظة: ٢٣٩ وما بعدها بتصرف.

وصول الرسول الحبيب المحبوب ﷺ إلى المدينة أن جميع اليهود على أمر مبيَّت للكيد للنبى ﷺ والقضاء عليه وعلى دعوته بأية وسيلة، مهما بلغت من الخسة والوضاعة!

وأثبتت مجريات الأحداث كذلك أن الغدر والخيانة واستحلال دماء وأعراض وأموال كل من يخالف اليهود في دينهم، ولا ينحدر من جنسهم، قاعدة عامة ثابتة لديهم، وطبيعة خبيثة متأصلة فى نفوسهم وسابحة فى دمائهم! لا تلبث أن تظهر وتبرز وتتجلى عندما تسنح لهم الفرصة، فيسيرون على هذه القاعدة اللعينة، حتى ولو كانوا قد أعطوا ألف عهد ووقَّعوا ألف ميثاق!

وسبق أن عرفنا أن اليهود جمعيا بقبائلهم الثلاث عندما سنحت لهم الفرصة داسوا العهود والمواثيق وشرعوا ـ دون إقامة أى اعتبار لخلق أو وجدان أو ضمير أو دين ـ فى تسديد ضربتهم التى يحرصون على أن تكون قاتلة حاسمة!

ولقد عانى الرسول الحبيب المحبوب ﷺ من هذا الخلق اليهودى الخبيث المتأصل متاعب كثيرة!

ولقد رأينا كيف صنع يهود بنى قينقاع، وبنى النضير، وبنى قريظة، ويهود خيبر، وكيف أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ قد اكتفى بنفى بنى قينقاع، وبنى النضير، بعد أن ظفر بهم، وكانت عقوبة النفى هذه فى مستوى الخطيئة التى ارتكبها بنو قينقاع، وبنو النضير!

يروى البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال :

حاربت قريظة والنضير، فأجلى بنى النضير، وأقر قريظة، ومنَّ عليهم ، حتى حاربت قريظة، فقتل رجالهم، وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين ، إلا بعضهم لحقوا بالنبى ﷺ فأمنهم وأسلموا. وأجلى يهود المدينة كلهم : بنى قينقاع ، وهم رهط عبد الله ابن سلام ، ويهود بنى حارثة ، وكلَّ يهود المدينة (١) .

ولكن هؤلاء اليهود عندما سنحت لهم الفرصة، وظنوا أنهم قادرون على سحق المسلمين، وإبادة خضرائهم إبادة كاملة، أقدموا على أحط عمل، وأنذل صنيع، في تاريخ النكث والغدر والخيانة!

---

(١) البخارى : ٦٤ ـ المغازى (٤٠٢٨) .

فقد استغل هؤلاء الجبناء الموقف العصيب الذى صار إليه المسلمون، حينما أغرقتهم جيوش الأحزاب الحانقة الجرارة من كل مكان!

وثارت بهم آنذاك خصائص النذالة المتأصلة فى نفوسهم، وطبيعة الخيانة السابحة فى دمائهم، فكشفوا القناع، وظهروا على حقيقتهم!

وإذا بالعهود والمواثيق التى أبرموها مع المسلمين تصبح وكأنها لم تكن!

فقد مزق هؤلاء اليهود هذه العهود، وتلك المواثيق، ووطؤوها بأقدامهم، حينما ذهبوا إلى قيادة الأحزاب الغزاة، يضعون يدهم فى أيديهم، ويعاهدونهم فى تلك الساعات الرهيبة الرعيبة الحاسمة من تاريخ الإسلام والمسلمين، على سحق المسلمين، وهدم كيان الإسلام إلى الأبد!

ويأتى إليهم المسلمون، الذين ـ كما شهد زعيم هؤلاء اليهود كعب بن أسد ـ لم يَرَوْا منهم ومن نبيهم إلا صدقا فى المعاملة، ووفاء بالعهد.. يأتون إليهم ليطلبوا منهم الثبات على العهد، ويذكّروهم بالمسئولية العظمى، والنتائج الوخيمة التى تترتب على النكث بهذه العهود وتلك المواثيق، وخاصة فى مثل تلك الظروف الحربية الدقيقة الحرجة! وإذ بالجواب يأتى من قبل هؤلاء اليهود، سخرية واستهزاء بالرسول الحبيب المحبوب ﷺ وبالمسلمين، وبالعهود والمواثيق التى أبرموها معهم:

«من هو محمد (هذا الذى يقول إن بيننا وبينه عهدا) ومن هو رسول الله؟ نحن لانعرف محمدا وليس بيننا وبينه أى عهد» !

هكذا كان جواب يهود بنى قريظة للمسلمين، عندما جاء وفدهم إلى هؤلاء اليهود، يطلب منهم الثبات على العهد الذى بين الفريقين، والقيام بالالتزامات العسكرية التي عليهم!

وهؤلاء اليهود لمْ يسلكوا هذا المسلك الوضيع المنحط إلا وقد تكون لديهم ما يشبه اليقين بأنهم ـ بمساعدة الأحزاب ـ قادرون على تدمير الكيان الإسلامى تدميرا كليا، ولهذا لم يترددوا فى الغدر بحلفائهم المسلمين، وعلى تلك الصورة الفظيعة البشعة!

ولو أن هؤلاء اليهود قد ظفروا بالمسلمين، وتمكنوا ـ بمساعدة الأحزاب ـ من احتلال المدينة ، لمَا تردّدوا لحظة فى الوصول بالمسلمين إلى أقصى ما يتصوره عقل يعرف طبيعة اليهود، ولا أدل على ذلك من أن هؤلاء اليهود قد اتفقوا مع قادة جيوش الأحزاب على

ألاينصرفوا بجيوشهم عن المدينة إلا بعد القضاء على المسلمين وسحقهم سحقا كاملاً، وذلك كشرط أساسى لانضمام هؤلاء اليهود إلى الأحزاب ضد المسلمين وإعلانهم نقض العهد الذى بينهم!

ولحرص هؤلاء اليهود على استئصال شأفة المسلمين وإبادتهم إبادة كاملة، طلبوا من القيادة المشتركة للأحزاب أن يسلموا إليهم رهائن من أبنائهم سبعين شابا ليضمنوا أن جيوش الأحزاب لن تنسحب من منطقة المدينة إلا بعد أن تفرغ من المسلمين. وتقضى عليهم قضاء تاما.

فهل بعد هذا الصنيع الذى صنعه اليهود مع سبق الإصرار، والذى لم يقدموا عليه إلا بعد درس وتخطيط، وخبث نية مبيتة، هل بعد هذا الصنيع الخسيس الوضيع الذى قام به هؤلاء اليهود، يجوز لعاقل منصف أن يسمح لنفسه بالقول: إن حكم الإعدام الذى صدر ونفّذ بحق المقاتلين من يهود بنى قريظة هو حكم غير إنسانى وغير عادل؟ !

سـؤال قانونـى :

والسؤال الذى نحب توجيهه إلى المعترضين والمستهجنين [١] للحكم الصادر والنافذ بحق هؤلاء المقاتلين هو:

ما هو الحكم اليوم الذى يجب إنزاله ـ فى جميع القوانين الدولية ـ بمن خان وطنه، وغدر بأمته، وشرع ـ أثناء ظروف حربية قائمة ـ فى الاتصال بالعدو الذى جاء غازيا لاحتلال وطنه، وسحق مواطنيه، وأخذ ـ بطريقة أو بأخرى ـ ييسر له سبل هذا الاحتلال؟!

أعتقد أن أحدا من هؤلاء المعترضين لن يستطيع القول بأن قانونا واحدا فى أى بلد من بلاد الدنيا سيقول لمن أقدموا على مثل هذه الجرائم التى ذكرنا ، اذهبوا فأنتم الطلقاء !

بل أعتقد أن واحدا من هؤلاء المعترضين لن يستطيع إلا أن يقول: إن أقل عقوبة يمكن إنزالها بمن ارتكب مثل هذه الجرائم التى أشرنا إليها إلا الموت، لأن جميع قوانين الدنيا ـ بلا استثناء ـ تنص على أن الموت ومصادرة الممتلكات هى العقوبة العادلة التى يجب أن تنزل بمن ارتكب مثل تلك الجرائم التى ذكرنا !

---

(١) غزوة بنى قريظة : ٢٥٠ وما بعدها بتصرف.

بنو قريظة فى نظر القانون الدولى:

إذا عرفنا هذا، واتفقنا على أنه ليس من الظلم، ولا من الوحشية فى شىء إصدار حكم الإعدام وتنفيذه بحق المواطن الذى يتصل بالعدو فى حالة الحرب القائمة، وييسر له ـ ولو ببعض المعلومات ـ مهمة احتلال وطنه، أو الإضرار بدولته وأمته، فإن سؤالا آخر أهم من السؤال الأول ـ فى عرف جميع القوانين ـ لابد للمعترضين على الحكم الصادر والنافذ بحق يهود بنى قريظة من الإجابة عليه، وهو:

ما هو حكم الذى ينقل معلومات إلى العدوّ تنفعه، وتيسر له الإضرار بالأمة، وتعرّض الوطن للخطر؟ وما هو حكم الذىِ يستغل ظروف وطنه ومواطنيه فيخون ويغدر، ويطعن وطنه وأمته من الخلف، فيشهر السلاح فى وجه دولته ومواطنيه، ويعلن انضمامه إلى العدو الغازى، في تلك الظروف الحربية الدقيقة المخيفة، قاصدا من وراء غدره وخيانته إخضاع وطنه للغزاة، وسحق الفئات الأخرى من بنى وطنه، وإسقاط النظام القائم ـ بحد السلاح وبالتواطؤ مع العدو ـ الذى ارتضاه واعترف به، وعاش فى ظله آمنا مطمئنا لم يهضم له حق، ولم يكن إلا محل الرعاية والوفاء؟ !

أعتقد أن أحدا ـ وحتى من المستبشعين للحكم الصادر فى بنى قريظة ـ لن يكن جوابه ـ إذا كان يحترم عقله ـ على هذا السؤال ، إلا الاعتراف بأن جميع قوانين وأعراف الدنيا فى الماضى والحاضر تنص ـ بالإجماع ـ على أن الموت والمصادرة هى عقوبة كل من يقدم على هذه الجرائم التى أشرنا إليها.

وحيث إن هذا أمر متفق عليه ـ بلا جدال ـ عند جميع الأمم ـ قديما وحديثا ـ فإنه من التحامل والتعسف والافتراء القول بأن الحكم الصادر في حق بنى قريظة هو حكم غير عادل، ومخالف لقواعد الإنسانية، لأن هؤلاء اليهود قد جمعوا في تصرفاتهم الخائنة الغادرة ضد المسلمين كل الجرائم التى عقوبة واحد منها ـ فقط ـ الموت فى جميع قوانين الدنيا!

فاليهود لم يكتفوا بالتجسس على مواطنيهم لحساب العدو في حالة الحرب، ولم يكتفوا بمدّ هذا العدو بالمساعدات التى تيسر له مهمة احتلال المدينة، وطن الجميع المشترك ـ يوم ذاك ـ .. وهى أعمال تصنّف فى باب الخيانة العظمى التى عقوبتها الموت فى جميع قوانين العالم.

نعم لم يكتفوا بهذه الأعمال فحسب، بل ـ بالإضافة إلى كل ذلك ـ أعلنوا قطع كل صلة بحلفائهم، مستغلين الموقف الدقيق المتأزم، حيث بلغت حالة المسلمين من الضيق والشدة حد الاختناق، ضاربين بكل المثل والأعراف والقوانين والعهود والمواثيق عرض الحائط!

إن يهود بنى قريظة ـ وقد ظهرت نواياهم الخبيثة، وتكشفوا على تلك الحالة من اللؤم والخسة والدناءة ـ لو تم النصر لهم وللأحزاب على المسلمين، لما رضوا إلا باستئصال شأفة المسلمين، ومصادرة كل أملاكهم، وسبى جميع نسائهم وذراريهم!

وهذا أمر مبيت منهم للمسلمين ـ بالتأكيد ـ فهم لم يقدموا على تلك الخيانة العظمى فيتواطؤوا مع العدو الغازى إلا وقد وضعوا نصب أعينهم ـ كهدف أول ـ إبادة المسلمين عن آخرهم !

وقد تجلى هذا المقصد الخبيث من اليهود عندما طلبوا من الأحزاب ـ كشرط أساسى لا نضمامهم إليهم ـ ألا ينسحبوا ويفكوا الحصار عن المدينة إلا بعد سحق المسلمين، واستئصال شأفتهم وأخذوا بذلك العهد على مندوب الأحزاب حيى بن أخطب فتعهّد لهم بذلك باسم الأحزاب !

فكيف إذن بعد هذه الحقائق الدامغة كلها، وبعد هذه الأعمال التى قام بها اليهود، والتى يكفى البعض منها .. فكيف بها مجتمعة ، لإدانة هؤلاء اليهود بالخيانة العظمى التى عقوبتها الموت والمصادرة فى جميع قوانين الدنيا!

كيف بعد هذا كله يسوغ لعاقل منصف يحترم نفسه أن ينفى صفة العدل والإنصاف عن الحكم الصادر والنافذ بحق هؤلاء اليهود الذين لم ينتهوا إلا إلى المصير الذى حاولوا ـ خيانة وغدرا وبكل الوسائل الخسيسة ـ أن يصلوا بالمسلمين إليه؟!

ولماذا يكون من العدل والإنصاف تنفيذ حكم الإعدام فى هذا العصر فيمن ارتكب جريمة واحدة فقط من الجرائم التى أشرنا إليها، والتى تكفى واحدة منها بإنزال عقوبة الإعدام بمرتكبها، كنقل أسرار حربية إلى العدو ـ فقط ـ كما يحدث فى هذا العصر، ولايكون من العدل والإنصاف ، بل يصبح من القسوة والوحشية والظلم، تنفيذ حكم الإعدام فيمن ارتكب كل هذه الجرائم الخطيرة مجتمعة، كما فعل بنو قريظة؟!

ألأن المحكومين يهود، والحاكمين مسلمون، أم ماذا ؟!

إننا لانزال نسمع كل يوم بأحكام الإعدام تصدر بحق أناس فى أمريكا وأوربا وكل العالم المسمى بالعالم الحر، لا لأنهم انضموا إلى الأعداء، وشهروا السلاح فى وجه دولتهم ومواطنيهم، وإنما لأنهم نقلوا إلى العدو معلومات تفيده وتيسر له الإضرار بوطنهم ومواطنيهم.

فما حل ليهود بنى قريظة إذن من عقاب إنما هو جزاء عادل ــ كما عرفنا ــ وفى الوقت ذاتة يؤيده القانون الدولى قديما وحديثا!

خونة لا أسرى حرب:

قد يقول قائل: لماذا لم يعامل الرسول الحبيب المحبوب ﷺ يهود بنى قريظة كما يعامل القائد المنتصر رجال جيش العدو الذى حارب ، وكتب له الفشل فى حربه فانهزم واستسلم ، كما هو الحال فى هذا العصر؟

والجواب على هذا التساؤل ــ من ناحية القانون الدولى المعاصر ــ :

أن اليهود عندما فعلوا مافعلوا بانضمامهم إلى قوات الأحزاب الغازية ضد المسلمين، لم يكونوا فى حالة حرب مع المسلمين، بل لم يكونوا حتى فى حالة تعاد أو تنافر. وإنما كانوا متحالفين، بل ومواطنين هم والمسلمون يشكلون وحدة وطنية لا تتجزأ، ملزمون على حد سواء بالدفاع المشترك عن الوطن الواحد المشترك!

ومن ثم فيهود بنى قريظة ــ من وجهة نظر القانون الدولى العام ــ لا يمكن وضعهم فى مكان العدو الذى استسلم وهو يخوض حربا، كالحرب التى تنشب لسبب من الأسباب بين دولة ودولة.

وإنما مكان هؤلاء اليهود ــ من وجهة نظر القانون الدولى العام ــ هو مكان الخائن المتآمر مع العدو على وطنه وهو في حالة الحرب القائمة، وحكم الذى شأنه هكذا عند الظفر به معروف لدى الخاص والعام، ومنصوص عليه فى جميع القوانين الدولية، وهو الإعدام لا غير .

إنهم ليسوا أسرى حرب بالمعنى المتعارف عليه دوليا، حتى يقال: لماذا لم يعاملهم محمد ﷺ مثلما عامل غيرهم ممن وقع في يده من أسرى الحرب الآخرين، وإنماهم خونة غادرون، ارتكبوا جريمة الخيانة العظمى ضد وطنهم فظفرت بهم يد العدالة، بعد أن أدانتهم بالتواطؤ مع العدو ضد الوطن الذى هو وطنهم!

ولهذا فإن الحكم الذى صدر بحق هؤلاء اليهود ونفّذ فيهم ، إذا نظرنا إليه ـ فقط ـ من زاوية العرف والقانون المتعارف عليه، والمعمول به فى القرن العشرين، عند جميع الدول وجدنا أنه يتفق كل الاتفاق مع هذا العرف، وذلك القانون، من جميع الوجوه.

ولعل الذين يستبشعون الحكم الذى صدر ونفّذ بحق يهود بنى قريظة، ينسون أو يتناسون أنه فى القرن العشرين هذا ـ قرن التقدمية والتمدّن كما يسمونه ـ قد سمعنا ولا نزال نسمع بأحكام تصدر بالموت، وتنفذ فى ظل القانون بحق أناس، لا لأنهم ارتكبوا مثلما ارتكب يهود بنى قريظة من جرائم الغدر والخيانة العظمى ضد مواطنيهم، وإنما لأنهم نقلوا ـ فقط ـ إلى عدو غير محارب بعض الأسرار التى تتعلق بسلامة الجيش والقوات المسلحة، كذلك الأمريكى الذى نفّذ فيه حكم الإعدام لأنه كان على اتصال بالروس ، ونقل إليهم أسرارا حربية تتعلق بصنع القنبلة الذرية وغيرها.

فكيف يكون من العدل المتمشى مع روح القرن العشرين إعدام مواطن أومواطنين لأنهم ـ فقط ـ نقلوا إلى العدو أسرارا تتعلق بسلامة الجيش.. أسرارا ليس من المؤكد أن نقلها سيعرض الجيش للإبادة، وإنما يمكّن قيادة العدو المنتظر ـ روسيا ـ من الاستفادة عسكريا، ويكون من الظلم والوحشية إعدام المواطن الذى لم يكتف بنقل أسرار جيش بلاده إلى العدو والمحارب المحيط ببلاده، بل شرع بالاتفاق مع العدو الغازى فى تسديد طعنة إلى ذلك الجيش ، واتصل بالعدو إتصالا مباشرا مكشوفا، وأعلن انضمامه إليه، مستهدفا إبادة المسلمين؟!

إنه لاجواب عند هؤلاء المعترضين والمستبشعين لما نزل بيهود بنى قريظة إلا الفلسفة الفارغة، والمغالطة المكشوفة التى تمليها الرغبة المبيتة الملحّة فى الطعن والتشويه لكل ماهو إسلامى فحسب!

إن يهود بنى قريظة ليسوا أسرى حرب بالمعنى المعروف، حتى يقال إن إعدام المقاتلين منهم على تلك الصورة السابقة وحشية وقسوة تتنافى وروح القرن العشرين، بل هم قوم ارتكبوا ضد وطنهم الخيانة العظمى وعلى درجة لم يصل إليها أحد قبلهم، ولا بعدهم في البشاعة والفظاعة والدناءة!

هدى النبى ﷺ فى الأسارى :

والمتعارف عليه دوليا في كل زمان أن لكل دولة قانونها الخاص الذى تسير عليه فى

سلمها وحربها.

ودولة الإسلام لها قانونها الثابت فى هذا المقام..

وهدى النبى ﷺ فى الأسارى أنه ـ كما يقول ابن القيم [(١)] ـ كان يمنّ على بعضهم، ويقتل بعضهم، ويفادى بعضهم بالمال، وبعضهم بأسرى المسلمين، وقد فعل ذلك كله بحسب المصلحة ففادى أسارى بدر بمال، وقال فيما رواه البخارى وغيره عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه أن النبى ﷺ قال فى أسارى بدر:

«لو كان المطعم بن عدىّ حيّاً، ثم كلمنى فى هؤلاء النّتنى، لتركتهم له». [(٢)]

وهبط عليه في صلح الحديبية ثمانون متسلّحون يريدون غِرّته، فأسرهم ثم من عليهم، وذلك فيما رواه مسلم وغيره [(٣)] عن أنس بن مالك، أن ثمانين رجلا من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلّحين يريدون غِرة [(٤)] النبى ﷺ وأصحابه، فأخذهم سلما. فاستحياهم. فأنزل الله عز وجل:

﴿ وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ [(٥)].

وأسر ثمامة بنَ أُثال سيد بنى حنيفة، فربطه بسارية المسجد، ثم أطلقه فأسلم، وذلك فيما رواه الشيخان وغيرهما عن أبى هريره ـ واللفظ لمسلم ـ يقول: [(٦)]

بعث رسول الله ﷺ خيلا قِبل نجد. فجاءت برجل من بنى حنيفة يقال له: ثمامةُ بن أثال. سيد أهل اليمامة. فربطوه بسارية من سوارى المسجد. فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال:

«ماذا عندك ؟ يا ثمامة !»

---

(١) زاد المعاد: ٣: ١٠٩ وما بعدها بتصرف، وانظر: المغنى لابن قدامة : ٨ : ٣٧٢ وما بعدها.

(٢) البخارى : ٦٤ ـ المغازى (٤٠٢٤) ، وأبو داود (٢٦٧٢) عون المعبود وأحمد : ٤: ٨٠ .

(٣) مسلم: ٣٢ ـ الجهاد ١٣٣ (١٨٠٨) وأحمد : ٣: ١٢٤ ـ ١٢٥، وأبو داود (٢٦٧١) عون المعبود، والترمذى (٣٢٦٤).

(٤) أى يريدون أن يصادفوا منه ومن أصحابه غفلة عن التأهب لهم، ليتمكنوا من غدرهم ، والفتك بهم .

(٥) الفتح: ٢٤.

(٦) البخارى: ٨ ـ الصلاة (٤٦٢) ومسلم: ٣٢ ـ الجهاد (١٧٦٤) وأبو داود (٢٦٦٢) عون المعبود من حديث أبى هريرة.

فقال: عندى يا محمد! خير. إن تقتل تقتل ذا دم . وإن تُنْعْم تنعم على شاكر. وإن كنت تريد المال فَسَلْ تُعْطَ منه ماشئت. فتركه رسول الله ﷺ . حتى كان بعد الغد فقال:

« ما عندك؟ يا ثمامة! »

« قال : ما قلت لك . إن تنعم تنعم على شاكر. وإن تقتل تقتل ذا دم . وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت . فتركه رسول الله ﷺ حتى كان من الغد . فقال :

« ماذا عندك؟ يا ثمامة! »

« قال : عندى ما قلت لك . إن تنعم على شاكر . وإن تقتل تقتل ذا دم . وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت . فقال رسول الله ﷺ :

« أطلقوا ثمامة » :

فانطلق إلى نخل قريب من المسجد . فاغتسل. ثم دخل المسجد فقال: أشهدُ أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. يامحمد! والله! ماكان على الأرض وجهٌ أبغضَ إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحبَّ الوجوه كلّها إليَّ. والله! ماكان من دين أبغض إليَّ من دينك. فأصبح دينك أحب الدين كلِّه إليَّ . والله! ما كان من بلد أبغض إليَّ من بلدك. فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إليَّ. وإن خَيْلَكَ أخذتنى وأنا أريد العُمْرة. فماذا ترى؟ فبَشَّره رسول الله ﷺ وأمره أن يَعْتَمر. فلما قدم مكة قال له قائل أصبوت؟ فقال: لا. ولكنى أسلمت مع رسول الله ﷺ. ولا ، والله! لايأتيكم من اليمامة حبَّةُ حِنْطَةٍ حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ .

واستشار الصحابة فى أسارى بدر، فقال لأبى بكر وعمر:

« ماترون فى هؤلاء الأسارى » .

فقال أبوبكر: يانبى الله! هم بنو العم والعشيرة. أرى أن تأخذ منهم فدية. فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام ، فقال رسول الله ﷺ :

«ماترى؟ يا ابن الخطاب!»

قلت: لا. والله ! يارسول الله! ما أرى الذى رأى أبو بكر و لكنى أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم. فتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه. وتمكنّى من فلان (نسيبا لعمر) فأضرب عنقة. فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها. فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر.

ولم يهو ماقلت. فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان. قلت يارسول الله! أخبرنى من أى شىء تبكى أنت وصاحبك. فإن وجدت بكاء بكيت. وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله ﷺ :

« أبكى للذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء. لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة » .

(شجرة قريبة من نبى الله ﷺ) وأنزل الله عز وجل :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾

إلى قوله:

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ﴾[1].

فأحل الله الغنيمة لهم. [2]

وقد تكلم الناس، فى أى الرأيين كان أصوب، فرجحت طائفة قول عمر، لهذا الحديث، ورجحت طائفة قول أبى بكر، لاستقرار الأمر عليه، وموافقته الكتاب الذى سبق من الله بإحلال ذلك لهم، ولموافقته على الرحمة التى غلبت الغضب [3].. ولحصول الخير العظيم الذى حصل بإسلام أكثر أولئك الأسرى، ولخروج من خرج من أصلابهم من المسلمين ، ولحصول القوة التى حصلت للمسلمين بالفداء ، ولموافقة رسول الله ﷺ لأبى بكر أولا، ولموافقة الله له آخرا حيث استقر الأمر على رأيه، ولكمال نظر الصديق، فإنه رأى ما يستقر عليه حكم الله آخرا، وغلب جانب الرحمة على جانب العقوبة.

قالوا: وأما بكاء النبى ﷺ ،فإنما كان رحمة لنزول العذاب لمن أراد بذلك عرض الدنيا، ولم ير ذلك رسول الله ﷺ ولا أبو بكر .. واستأذنه الأنصار أن يتركوا للعباس عمه فداءه، وذلك فيما رواه البخارى عن أنس رضى الله عنه: أن رجالا من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله ائذن فلنترك لابن أختنا عباس فداءه، فقال.

---

(١) الأنفال : ٦٧ ـ ٦٩ .

(٢) مسلم: ٣٢ ـ الجهاد ٥٨(١٧٦٣) وأحمد: ١ :٣٠ ـ ٣١ من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

(٣) انظر: نفحات رمضان وأثرها فى تكوين الشخصية الإسلامية : ٢١٠ وما بعدها، وتفسير الطبرى : ١٠ : ٤٢ وما بعدها، وتفسير القرطبي : ٨ : ٤٥ وما بعدها، وتفسير ابن كثير : ٢ : ٣٢٥ وما بعدها، وتفسير المنار : ١٠ : ٨٣ وما بعدها.

« **لا تدعون منها درهما** » .[1]

واستوهب من سلمة بن الأكوع جارية نفله إياها أبو بكر في بعض مغازيه، فوهبها له[2] ففدى بها ناسا من المسلمين كانوا أسروا بمكة ..

ورد سبى هوزان عليهم بعد القسمة واستطاب قلوب الغانمين، فطيبوا له وعوض من لم يطيب من ذلك بكل إنسان ست فرائض، وذلك فيما رواه البخارى من حديث مروان والمسور[3] .

وقتل عقبة بن أبى معيط من الأسرى، فيما رواه أبو داود بسند حسن عن ابن مسعود أن النبى ﷺ لما أراد قتل عقبة بن أبى معيط، قال : من للصبية. قال :

« **النار** »[4] ..

وعلى ضوء هذا فإن يهود بنى قريظة، حتى لوكانوا أسرى حرب جدلا فإنه لامكان للاستنكار أيضا! ولا لوم من وجهة النظر الدولية ولا اعتراض على من طبق قانون بلاده فيها على غير أبناء بلاده فكيف بالمواطنين من أبناء بلده؟ !

بين سكان «هيروشيما» و« بنى قريظة » :

وإن تنفيذ الحكم العادل على بنى قريظة إذا قارناه بما ارتكبه ولا يزال يرتكبه هؤلاء الذين يتشدقون بذكر وحشية عملية إبادة بنى قريظة ويتبجحون بذكر مدنية[5] القرن العشرين، وحقوق الإنسان، لوجدنا أن عملية واحدة من عمليات الإبادة التى أقدموا عليها تكفى لأن تجعل عملية تنفيذ الحكم فى بنى قريظة شيئا لا يذكر. فكم سمعنا ولانزال نسمع، ويسمع العالم ويرى كيف يحصد هؤلاء المتمدنون مئات الآلاف من النساء والشيوخ والأطفال الذين لم يكونوا يوما من المحاربين، ويستأصلون شأفتهم باسم القانون، وحماية الوطن، وسلامة الدولة!

فأين ـ مثلا ـ قتل هذا العدد القليل من المقاتلين من بنى قريظة ـ كما أسلفنا ـ من (٢٥٠)خمسين ومائتى ألف غير محاربين ولا خونة، ولا ناكثين ولا غادرين، مسحتهم من الوجود هم ومدينتهم نساء وأطفالا وشيوخا ، قنبلة ذرية واحدة، ألقت بها عليهم ـ عن

---

(١) البخارى :٥٦ ـ الجهاد (٣٠٤٨) . (٢) مسلم : ٣٢ ـ الجهاد ٤٦ (١٧٥٥).

(٣) البخارى : ٦٤ ـ المغازى (٤٣١٨ ، ٤٣١٩) ، وأبو داود (٢٦٧٧) ، عون المعبود ، وابن هشام : ٢ : ٤٨٩ من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

(٤) أبو داود (٢٦٦٩) عون المعبود، وابن هشام: ١: ٦٤٤ .عن ابن إسحاق .

(٥) غزوة بنى قريظة : ٢٦٢ وما بعدها بتصرف.

قصد وسابق تخطيط ـ طائرة حربية تابعة لدولة يقال حتى هذه اللحظة : إنها أم الحريات ومعقل الدفاع عن الإنسانية ، وهى دولة الولايات المتحدة الأمريكية ، التى ألقى سلاح طيرانها تلك القنبلة على مدينة « هيروشيما العزلاء الآمنة فى اليابان » فى أواخر الحرب العالمية الثانية !

سكان « نجازاكى » :

كما ألقى مثلها على سكان مدينة «نجازاكى» العزلاء كذلك فأبادوا وشوهوا أيضا مئات الآلاف من الشيوخ والنساء والأطفال العزل؟!

. نعم، أين إعدام هذا العدد القليل من بنى قريظة بعد محاكمة وإدانة صريحة بالخيانة العظمى والغدر البشع، من حصد أرواح مئات الآلاف من النساء والشيوخ والأطفال العزل.. دون أن يقترفوا ذنبا ، أو يرتكبوا خطيئة؟!

وبعد ألا يخجل هؤلاء المتعصبون ضد الإسلام، والباحثون كل يوم عن مطعن يحط من شأنه! ألا يخجل هؤلاء هم وتلاميذهم من المنتسبين إلى الإسلام ، والطاعنين ـ باسم الإنسانية ـ فى الحكم الصادر والنافذ بحق هؤلاء اليهود الخونة! ألا يخجل هؤلاء هم وتلاميذهم من المحسوبين على الإسلام، حينما يتشدقون بطعونهم في حكم الإعدام الصادر والنافذ بحق هؤلاء اليهود الذين ارتكبوا الخيانة العظمى ، ويصفونه بأنه عقاب وحشى لا يتفق وروح هذا القرن العشرين المتمدنة، وهم يعلمون أن أسيادهم، ومن يعتبرون فى الذروة من مدنية القرن العشرين، قد حصدوا أرواح مئات الآلاف من غير المحاربين من الشيوخ والنساء والأطفال، عن قصد وتخطيط وسابق إصرار ؟!

خرافة مدنية القرن العشرين:

وأية مدنية القرن العشرين هذه التى يتبجح بها هؤلاء المتعصبون وتلاميذهم بسموها وعلو روحها، ويجعلون منها مقياسا للعدل والرحمة والتمدن، وبمعيارها يصدرون حكمهم بالقسوة والوحشية والهمجية على قرار حكم الإعدام الذى صدر ونفذ فى حق المقاتلين من يهود بنى قريظة!

أهى هذه المدنية التى ـ كما رأينا ورأى العالم ـ سمح أقطابها وحماتها وسدنتها لأنفسهم أن يمسحوا من الوجود بسلاح وحشى رهيب رعيب مئات الآلاف من النساء والشيوخ والأطفال العزل؟!

أهى هذه المدنية التى سمح حماتها وسدنتها لطياريهم فى الحرب العالمية الثانية أن

يقتلوا تحت الأنقاض فى ليلة واحدة أهل مدينة همبورج الشهيرة فى ألمانيا الغربية أربعين ألف (١) إنسان من المدنيين العزل؟!

أهى هذه مدنية القرن العشرين التى يتشدق بها الببغاوات من المحسوبين على الإسلام، ويجعلونها مثلهم الأعلى، ومرجعهم الأول، فى الحديث عن الإنسانية والمدنية، وحقوق الإنسان، ويحتجون بأن إعدام هذا العدد القليل من المقاتلين من يهود بنى قريظة يتنافى مع روح مدنيتهم هذه؟!

أهذه هى مدنية القرن العشرين التى أباحت بقانون دم إنسان زنجى، إذ حكمت عليه بالإعدام، ونفذ فيه الحكم، لأنه سرق دولارين من إنسان أبيض، وحكمت بالإعدام على زنجى آخر، لأنه ـ فقط ـ راود امرأة بيضاء عن نفسها، ولم يرتكب الخطيئة؟! (٢).

أهذه هى المدنية العالمية التى يجعلها الحاقدون على الإسلام، والمفتونون من المنتسبين إليه، مقياسا أعلى للإنسانية والرحمة والعدل، توزن بميزان روحها أعمال أعظم وأعدل وأرحم رجل عرفه التاريخ: محمد بن عبد الله ﷺ ، ويصفون حكم الإعدام بالقسوة والهمجية، بحجة أنه يتنافى مع روح هذه المدنية، مدنية القرن العشرين إياها ؟!

إعدام ثلاثة آلاف أسير فى فلسطين :

وأين هؤلاء الذين لا يعجبهم هذا الحكم بحجة أنه يتسم بطابع الوحشية والانتقام!

أين هؤلاء المتمدنون من فعلة ريتشارد (قلب الأسد) قائد الحملة الصليبية فى فلسطين، الذى أعدم (٣٠٠٠) ثلاثة آلاف آسير من المسلمين فى فلسطين، بعد أن أعطاهم الأمان، وقطع على نفسه عهدا بحقن دمائهم؟!

وقد أثبت ذلك جوستاف لوبون فى كتابه «حضارة الغرب» !

يقول الأستاذ باشميل: لقد تعمدنا فى مناقشة المعترضين على حكم الإعدام الجماعى الصادر بحق يهود بنى قريظة ـ المقاتلين ـ والنافذ فيهم.. تعمدنا إغفال النصوص الشرعية والاحتجاج بها، ومناقشتهم في حدود مفهوم الأعراف والقوانين العصرية التى يقدسونها، لأنهم لا يؤمنون با لإسلام الذى هو مصدر تلك الأحكام التى نفذت فى اليهود.. فصار من غير المجدى محاولة إقناعهم بوجاهة ذلك الحكم وعدالته عن طريق الرجوع بهم إلى قواعد ونصوص الشريعة الإسلامية من آيات وأحاديث. فهذه النصوص والقواعد إنما يناقش فى حدودها من يؤمن بمصدرها، ويرى نفسه ملزما بالرضوخ لها، والاحتكام إليها.

---

(١) انظر: غزوة بنى قريظة: ٢٦٤ هامش. (٢) انظر : صراع مع الباطل: ١١٧ .

وأعداء الإسلام هؤلاء وتلاميذهم من الذين يسيرون على أصول قوانينهم فى تشريعاتهم الوضعية، إنما يهدفون بمحاولتهم الطعن فى الحكم الصادر بحق اليهود، انتقاص أصول الشريعة الإسلامية الغراء، ولهذا لزم إبطال مزاعمهم ونقض مطاعنهم فى حدود قانونهم وبمنطقهم ذاته.

حكم اليهود فى شريعتهم:

وهناك أمر آخر مهم لابد من ذكره بهذه المناسبة، وهو أن الحكم الذى صدر على يهود بنى قريظة قد جاء فى التوراة عندهم، فقد نص الإصحاح العشرون فى سفر التثنية من كتابهم المقدس على أن لهم قتل كل الذكور من أعدائهم، إذا ظفروا بهم وامتلاك نسائهم وأطفالهم، وكل ما يملكون!

وهذا هو نص الإصحاح:

«وإن لم تسالمك أية قرية، بل حاربتك فحاصرها وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال، والبهائم وكل ما فى المدينة، وكل غنيمتها، فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك» [١].

وسبق أن عرفنا أن القتل الذى صدر ونفذ فى يهود بنى قريظة كان خاصا بمن بلغ من المقاتلين، أما نص التوراة الذى معنا فإنه يأمر بضرب جميع الذكور بحد السيف، ولم يشترط بلوغا!

وعلى كل فإنه يجعل هؤلاء اليهود بالتأكيد يرون أن من حقهم تنفيذ حكم الإعدام فيمن وقع فى أيديهم من الذكور جميعهم ، وسبى النساء والأطفال ومصادرة كل الممتلكات .

وهذا يعنى أن اليهود لو نجحوا فى مؤامراتهم وتم لهم ولأحلافهم التغلب على المسلمين، لما ترددوا لحظة فى إبادة جميع الذكور منهم وسبى نسائهم وذراريهم، ومصادرة ممتلكاتهم. تمشيا مع حكم كتابهم المقدس الذى جاء صريحا فى الإصحاح العشرين من سفر التثنية !

ولهذا لم يبق ــ لا من الناحية الدينية ولا من الناحية الوجدانية ولا من الناحية القانونية ــ أى مجال للانتقاد فى الحكم الصادر والنافذ بحق يهود بنى قريظة!

---

(١) سفر التثنية: ٢٠: ١٣ ــ ١٤ .

وبالإضافة إلى كل ما سبق من حجج لا تقبل الجدل ، نقول لهؤلاء الطاعنين والمستبشعين لهذا الحكم .. إن أى واحد لو كان مسئولا عسكريا عن سلامة أمته، وفى أى عصر من العصور، فتعرض هو وجيشه ووطنه وأمته لمثل ذلك الموقف من خطر خيانة بنى قريظة وغدرهم بانقلابهم على المسلمين فى ذلك الظرف، ذلك الغدر الذى جعل جيش المدينة يقع فى أخطر مأزق يمر به فى تاريخ حياته العسكرية، حيث وصل هذا الجيش بسبب خيانة بنى قريظة إلى درجة من الخطر كانت قاب قوسين أو أدنى من الإبادة ، لولا عناية الله التى أنقذت المسلمين بمعجزة!

نعم ، نقول لهؤلاء المعترضين، لو أن واحدا منكم كان قائدا عسكريا، وتعرَّض هو وجيشه وأمته ووطنه لمثل ذلك الموقف، لما وسعه إلا أن ينزل بهم مثل ما نراه ونسمعه من الإبادة للجميع بالأساليب المحرمة دوليا!

إنصاف سعد بن معاذ:

ولقد كتب الأستاذ محمد البيومى مقالا تحت هذا العنوان فى مجلة الحج بمكة المكرمة في عددها الثانى عشر من سنتها الثامنة عشرة، فند فيه مزاعم المستشرقين، وأنحى باللوم على المنتسبين إلى الإسلام من الذين تأثروا بوساوس المستشرقين جاء فيه:

ليس من الغريب أن يندفع غلاة المستشرقين فى تجريد سيد الأوس سعد بن معاذ، حين أصدر حكمه العادل باستئصال بنى قريظة ـ المقاتلين ـ إذ خانوا الله ورسوله، وتآمروا بالمسلمين، فحالفوا قريشا على حرب محمد ﷺ ناقضين عهودهم الوثيقة، ومعلنين دفائن أحقادهم الثائرة!

ويوم صدق الله وعده فرد الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا، وحان أوان القصاص فارتضوا سعد بن معاذ حكما، فجزاهم بما اقترفوا من العقوق والغدر أعدل الجزاء.

ليس من الغريب أن يندفع غلاة المستشرقين في ذلك عن غرض جائر وهوى مريض إنما الغريب حقا أن يستمع إليهم بعض عقلائنا المسلمين من كبار رجال القانون، فيروا فى حكم سعد مغالات كبيرة!

ولا أدرى كيف يقولون ذلك، وقد درسوا القوانين المعاصرة دراسة نافذة، وكان في مقدرتهم أن يطبقوها على قضية بنى قريظة، ليروا أن قوانين القرن العشرين لاتختلف فى شيء عما أصدره سعد بن معاذ..

ولكن أقوال ذوى الغرض من المستشرقين قد خدعت رجالنا عن عقولهم، فنسوا ما يحفظون، وتجاهلوا ما يعلمون ..

ثم يعرج على تلك المطاعن، فيثبت بطلانها عن طريق المقارنة بين القوانين العصرية الوضعية وبين حكم سعد على اليهود قائلا:

وسنضطر هنا إلى مخاطبتهم بلغتهم القانونية.. ثم يقول:

لقد كان بين الرسول ﷺ وبين يهود بنى قريظة معاهدة تحفظ حقوق الفريقين، وتقضى على كل فريق أن ينصر الآخر إذا واجه خطرا فى حرب..

ولكنهم ـ أى اليهود ـ تآمروا فانضموا إلى أعدائه، وأوقعوه بين شقى الرحى فى المدينة مصطليا بنار أعدائه المشركين من جهة، واعتداء حلفائه اليهود فى ساعة العسرة من جهة ثانية. فاقترفوا بذلك الغدر ثلاث جرائم:

أولا: رفع السلاح ضد سلطان المدينة مع الأجنبى المعتدى.

ثانيا: دس الدسائس لدى العدو ضد المسلمين.

ثالثا: تسهيل دخول العدو للبلاد.

قانون العقوبات المصرى:

ثم يعقب على إدانة اليهود بهذه الجرائم الثلاث فيقول:

وقانون العقوبات المصرى ـ وهو أقرب قانون يعرفه من يؤاخذون سعدا من رجالنا القانونيين ـ يجعل الإعدام عقوبة كل جريمة من الجرائم الثلاث التى ارتكبها اليهود.

وينص على ذلك فى المواد ٧٧، ٧٨، ٧٩، وهذه هى نصوصه على الترتيب:

[المادة ٧٧] يعاقب بالإعدام كل مصرى رفع السلاح على مصر أو التحق على وجه بعمل فى القوات المسلحة لدولة تحارب مصر.

[المادة ٧٨] كل من ألقى الدسائس إلى دولة أجنبية أو إلى أحد من مأموريها أو إلى أى شخص يعمل لمصلحتها أو تخابر معها أو معه بقصد استعدائه على مصر أو تمكينه من العدوان عليها يعاقب بالإعدام، سواء تحقق الغرض أم لم يتحقق.

[المادة ٧٩] يعاقب بالإعدام كل من سهل دخول العدو إلى البلاد أو سلمه مواقع أو سفنا أو طائرات مما يستعمل فى الدفاع عن البلاد، أو نقل إليه أخبارا أو أرشده أو حرض الجنود على الإنضمام إليه أو أثار الفتن والشائعات أو نحو ذلك.

القانون الكويتي:

ونظرا لأن هذه الدراسات قدمت من إذاعة القرآن الكريم من الكويت، وأعيدت من إذاعة البرنامج العام، فإني أقدم نص القانون الكويتي على ذلك في مادة (١٥٠) ومادة (١٥١) فيما يأتي:

أ ـ كل من ارتكب عمدا فعلا يؤدي إلى المساس باستقلال البلاد أو وحدتها أو سلامة أراضيها.

ب ـ كل من سعى لدى دولة أجنبية أو تخابر معها أو مع أحد ممن يعملون لمصلحتها للقيام بأعمال عدائية ضد الكويت.

جـ ـ كل من سعى لدولة أجنبية معادية أو تخابر معها أو مع أحد ممن يعملون لمصلحتها لمعاونتها في عملياتها الحربية أو للإضرار بالعمليات الحربية لدولة الكويت.

د ـ كل كويتي رفع السلاح وهو في الخارج على الكويت أو التحق بأي وجه بصفوف العدو أو بالقوات المسلحة لدولة في حالة حرب مع الكويت.

وتكون العقوبة الإعدام أو السجن المؤبد إذا كان التحاق الكويتي بقوة مسلحة لجماعة معادية ليست لها صفة المحاربين.

[مادة ١٥١] يعاقب بالإعدام:

أ ـ كل من تدخل لمصلحة العدو في تدابير لزعزعة إخلاص القوات المسلحة أو إضعاف روحها أو روح الشعب المعنوية أو قوة المقاومة عنده.

ب ـ كل من حرض الجند في زمن الحرب على الإنخراط في خدمة دولة أجنبية أو سهل لهم ذلك، وكذا من تدخل عمدا بأية كيفية في جمع الجند أو رجال أو أموال أو مؤن أو عتاد أو تدبير شيء من ذلك لمصلحة دولة في حالة حرب مع الكويت.

جـ ـ كل من سهل للعدو دخول البلاد أو سلمه جزءا من أراضيها أو منشآت أو مواقع عسكرية أو موانئ أو ترسانات أو مخازن أو سفنا أو طائرات أو وسائل مواصلات أو مصانع أو أسلحة أو ذخائر أو مهمات حربية أو مؤنا أو أغذية أو غير ذلك مما أعد للدفاع أو يستعمل فيه، وكل من عاون العدو على بلوغ شيء من ذلك بأن نقل إليه أخبارا أو كان له مرشدا.

اتفاق القوانين المعاصرة:

وبالرجوع إلى جميع القوانين الوضعية المعاصرة يتضح أنها جميعا تتفق على هذه العقوبات فى محاكمتها للمواطنين الخونة.

ويؤكد عدالة العقوبة النازلة بيهود بنى قريظة - من وجهة نظر مدنية القرن العشرين - فيقول : الأستاذ محمد البيومى فقانون القرن العشرين صريح فى إدانة بنى قريظة، حيث ارتكبوا جميع ما تستحق جريمة واحدة منه الإعدام.

وسنعرض لخيانتهم[1] بالتفصيل حين نتذكر بإيجاز سيرة سعد، ليعلم المنصف، كم تجنى عليه أعداء الإسلام، إذ وصفوه بالوحشية والقسوة والغدر!

ولم تنكب رجالنا من القانونيين سبيل الإنصاف، حين زعموا أن حكمه القضائى لايوائم أحكام القرن العشرين، وقد فاتهم أن يحيطوا بالقضية من أطرافها، ليروا شططهم البعيد!

أما الرجل - يعنى سعد بن معاذ - فبطل صادق، ومسلم صريح، وإن هؤلاء الغادرين قد آسفوه بخيانتهم الأثيمة، فما راعوا إلا ولاذمة، وكان سعد مع قومه من الأوس قدشفع لديهم - بادئ ذى بدء - ليرجعوا عن غدرهم الفاضح، فما راقبوا الله فى حلف أو ميثاق، حتى انكشفت الغمة، فقبعوا فى حصونهم يترقبون ما تتمخض عنه الحوادث!

وطبيعى أن يعجّل المسلمون بعقاب هؤلاء الخونة عقابا رادعا، فاتجهوا إليهم على الفور، وحاصروهم فى ديارهم - كما أسلفنا - واتجهت أنظارهم إلى حلفائهم ليكونوا شفعاءهم.. ورسول الله ﷺ يدرك نفسيات قومه، فوضع الشيء فى موضعه، حين اختار سعد بن معاذ، ليكون فيصلا قاطعا ينزل الفريقان على رأيه.

وعرفنا أن سعدا رضى الله عنه قد قدر الموقف تقدير من شاهد كروبه ومآذقه، وعرف النذر المستطيرة التى تراءت فى الأفق، فأوشكت أن تطيح بالعصبة المؤمنة، لولا عناية الله عز وجل.

ومن ثم كان الحكم الذى لاقى فيه المقاتلون من يهود بنى قريظة أسوأ مصير على أفظع خيانة!

التقول على الإسلام :

ويعقب الأستاذ البيومى على ذلك بقوله:

(١) غزوة بنى قريظة: ٢٧١ وما بعدها بتصرف.

وقد كانت صرامة هذه العقوبة مدعاة للتقول على الإسلام دون عدالة وإنصاف، فالمسلمون لم يتجنوا على بنى قريظة بإستئصالهم المبيد، لأنهم متهمون بالخيانة العظمى، وقد ثبتت إدانتهم ثبوتا قامت دلائله، وفدحت نتائجه وهذه الخيانة الخطيرة ليس لها فى جميع الشرائع غير الإعدام السريع!

مقارنة بين قبائل اليهود:

ولم يكن اليهود أسرى حرب، فيميل بهم إلى الشفقة، ولكنهم شر من الأعداء، إذ يبيتون لأناس يأمنونهم، ويخصونهم بحقوق الجار والمواطن، وواجبات الذمام، وموقفهم هنا يختلف اختلافا واضحا عن موقف بنى قينقاع وموقف بنى النضير.

فيهود بنى قينقاع قد أبدوا البغضاء من أفواههم ـ كما أسلفنا ـ وأشاعوا الريب والشكوك، ورأوا في الدعاية المغرضة سلاحا لايفل.

ويهود بنى النضير ـ كما عرفنا ـ قد ائتمروا على قتل الرسول الحبيب المحبوب ﷺ، وتحالفوا مع بعض المنافقين على المناجزة دون أن تتيح لهم الفرصة طريقا يصلون منه إلى التنفيذ!

وهؤلاء وأولئك؛ أهون خطبا من الذين سلوا السيوف، ووقفوا فى صفوف العدو، وأوقعوا الهلع فى قلوب يحيط بها الروع من كل ناحية، فتعادل الكفتين بينهما طيش لا يقره إنصاف!

وقد جلا بنو قينقاع وبنو النضير عن المدينة، فكانوا مثار القلق والفتنة ، ومبعث الضيق للمسلمين.. ومن ثم حزب اليهود الأحزاب، وجمعوا القبائل مع المشركين ليوم الخندق، فأعطوا بمؤامرتهم المزعجة ما يوجب استئصال شأفتهم، وتتبع الأفاعى فى كل مكمن، ليطفئ ذلك لهبا يستعر إذا هبت عليه الريح.

وقد تحقق ذلك مبدئيا في يهود بنى قريظة، وظهرت نتائجه الحاسمة فى خيبر ـ كما سبق ـ حيث تعرضوا لزلزال رهيب، كان لابد منه.

اعتراض على التوراة من باب أولى:

وإن كل إعتراض على هذا الحكم اعتراض على التوراة من باب أولى ـ كما

عرفنا ـ وتسليم بأن شريعة الإسلام السمحة يجب أن يرجع إليها، وأن يحتكم الناس جميعا إلى أحكامها، ويؤمنوا بها، وأيما مقارنة فى هذا الصدد ، خليق بها أن تكشف ـ فى وضوح بالغ ـ أى قانون رفيق عطوف رحيم قدمه الإسلام إلى الناس [١].

تبعات الحكم:

يقول الشيخ الغزالى: [٢] أجل، هو القتل، وإنما تقع تبعات الحكم به على من تعرض له بسوء صنيعه وبما أسلف من نيات خبيثة لم يسعفها الحظ فتحقق، ولو قد تحققت لكان ألوف المسلمين هلكى تحت أقدام الأحزاب المنسابة من كل ناحية، يحرضهم ويؤازرهم أولئك اليهود!

وربما كانت مغامرات نفر من طلاب الزعامة سببا في هذه الكارثة التى حلت ببنى قريظة، ولو أن حيى بن أخطب وأضرابه سكنوا فى جوار الإسلام، وعاشوا على ما أوتوا من مغانم، ما تعرضوا ولا تعرض قومهم لهذا القصاص الخطير!

لكن الشعوب تدفع من دمها ثمنا فادحا لأخطاء قادتها!

وفي عصرنا هذا دفع الروس والألمان وغيرهم من الشعوب أثمانا باهظة لأثرة الساسة المخدوعين!

ولذلك ينعى القرآن على أولئك الرؤساء مطامعهم ومظالمهم التى يحملها غيرهم قبلهم:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۝٢٨ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ [٣].

ألم ترى إلى هذا الحال العجيب [٤] .. حال الذين وهبوا نعمة الله، ممثلة فى رسول، وفي دعوة إلى الإيمان، وفى قيادة إلى المغفرة، وفي مصير إلى الجنة.. فإذا هم يتركون هذا كله.. ويأخذون بدله «كفرا»! أولئك هم السادة القادة الذين قادوا قومهم إلى جهنم، وبئس ما أحلوهم من مستقر وبئس القرار من قرار!

---

(١) انظر المرجع السابق: ٢٧٤ وما بعدها.

(٢) فقه السيرة: ٣١٦ بتصرف.

(٣) إبراهيم: ٢٨ ـ ٢٩ .

(٤) فى ظلال القرآن :٤: ٢١٠٥ بتصرف .

ألم تر إلى تصرف القوم العجيب، بعدما رأوا ما حل بمن قبلهم.. لقد استبدلوا بنعمة الرسالة والرسول كفرا، وبنعمة الهدى ضلالا، وبنعمة الأمان حربا، وبنعمة السلام عداء!

وما أشد ما تنطبق هذه الآية فى العصر الحاضر على الذين دفعوا بخيرة جندهم ليموتوا بالآلاف فى حرب خاسرة ظالمة، كما يموت المعتدى الأثيم الباغي، وما أسوأ المصير الذى يؤول إليه المسلم، إذ يقتله مسلم وهو يصد عدوانه عن عرضه وأرضه!

وفي هذه الأيام بالذات أريقت الدماء المسلمة بغزارة رخيصة، لا لتحرير وطن من غاز أو محتل دخيل، وإنما لإشباع شهوات فئة مصابة بوباء السيطرة والتسلط ، ومن ثم أزهقت على مذابح أطماع هؤلاء المتهوسين أرواح تفوق الحصر والعد، وذهبت دماؤهم هدرا!

ولن تعدم المبادئ الباطلة، والنحل الهازلة أتباعا يفتدونها، غير أن شيئا من هذا لا يجعل الباطل حقا، ولا الجور عدلا!

أقول هذا بعدما عشت فى الكويت كل أيام العدوان العراقى الغاشم على هذا البلد، وتعرضت للقتل أكثر من مرة.. وأحتسب ذلك عند الله تعالى.

ومعلوم أن موقف اليهود من الإسلام بالأمس هو نفس الموقف من المسلمين اليوم ، فألوف من إخواننا ذبحهم اليهود في صمت وهم يحتلون فلسطين!

والغريب أن اليهود تركوا من نصب لهم المجازر فى أقطار أوربا، وجبنوا عن مواجهتهم بشر! واستضعفوا المسلمين الذين لم يسيئوا إليهم غير هذا التاريخ فنكلوا بهم على النحو المخزى الفاضح الكالح، الذى لا يزال قائما فى فلسطين.. تشهده وتؤيده وتسانده دول الكفرَ والإلحاد!

رأى «مونتجمرى وات» :

وإذا كانت جمهرة كتاب الغرب قد جانبت الصواب، [1] وحادت عن جادة الإنصاف، عندما وصفت الحكم الصادر والنافذ بحق يهود بنى قريظة بالوحشية والقسوة، فإن «مونتجمرى وات» يقول: [2]

---

(١) غزوة بنى قريظة: ٢٨١ بتصرف.

(٢) محمد نبى ورجل دولة: ١٧١ وما بعدها.

لقد انتقد بعض الأوربيين الحكم الصادر بحق بنى قريظة، ووصفوه بالهمجية، وقد اندهش بعض معاصرى محمد لعدم اكتراثه بالعواقب التى قد تنتج عن قتل بنى قريظة.. إلا أن عمل هذه القبيلة أثناء محاصرة المدينة كان يعتبر ناقضا للمعاهدة المبرمة مع محمد..

ولا داعى للافتراض بأن محمدا قد ضغط على سعد بن معاذ لينزل هذه العقوبة ببنى قريظة، فإن رجلا بعيد النظر كسعد لابد أنه أدرك أن طغيان الولاء القبلى على الولاء الإسلامى سيجدد المعارك الدموية التى جاءوا ـ أى الأوس والخزرج ـ بمحمد لينقذهم منها، ويقال: إنه عندما مثل ـ سعد ـ أمام محمد لينفذ حكمه أشار سعد إلى أن قرب نهايته يحتم عليه أولا القيام بواجبه تجاه ربه والجماعة الإسلامية، حتى على حساب الأحلاف القديمة.

ثم يشير الكاتب الإنكليزى إلى حكمة الرسول فى اختيار ـ سعد بن معاذ ـ ليحكم فيهم، ويستدل من ذلك على بعد النبى ﷺ عن الدكتاتورية التي اتهمه بها خصومه فيقول:

إن تعيين سعد بن معاذ من قبل محمد لم يكن يقصد به التستر وراء سلطة ديكتاتورية، لم يكن محمد يملكها فى ذلك الوقت، بل كان محاولة لمعالجة مشكلة عويصة بأحصف وأحذق طريقة ممكنه.

ثم يؤكد الدكتور « مونتجمرى » بأن الحكم النافذ في حق بنى قريظة لم ينفذ لأنهم يهود، بل لأنهم خونه ارتكبوا الخيانة العظمى فيقول:

لم تبق قبيلةيهودية ذات أهمية بالمدينة بعد القضاء على بنى قريظة، بل كانت هناك بعض المجموعات الصغيرة.. وتشير بعض الروايات إلى أن أحد أثرياء اليهود قد اشترى بعض نساء وأطفال بنى قريظة، ولا شك أن اليهود الذين تخلفوا في المدينة كانوا على جانب كبير من الحذر، فلم يتمنعوا عن بعض النشاطات المعادية فحسب، بل حتى عن بعض النشاطات الاجتماعية، غير أن عواطفهم كانت بلا شك مع إخوانهم اليهود فى غزوة خيبر.

إن استمرار وجود بعض اليهود فى المدينة يمكن أن يعتبر دليلا ضد وجهة نظر بعض العلماء الأوربيين التى تقول:

إن محمدا انتهج فى السنه الثانية للهجرة سياسة إبادة جميع يهود المدينة، لمجرد كونهم يهود، وإن هذه السياسة أخذت تزداد عنفا..

ثم يقول الدكتور «مونتجمرى»: إلا أن محمد لم يكن من طبيعته سلوك مثل هذه السياسة، فقد كان يتمتع بنظرة معتدلة لأسس المشاكل المعاصرة، ولسياسة طويلة الأمد، يكون على ضوئها سياسته بموجب العوامل.. أما بالنسبة لهجومه على القبيلتين اليهوديتين فقد كانت مجرد فرصة مواتية ، غير أنه كانت هناك بعض الأسباب العميقة.. فقد كان اليهود من جانبهم يحاولون زعزعة المجتمع الإسلامى بانتقاداتهم الموجهة ضد الوحي القرآني، كما أنهم كانوا يمنحون تأييدهم السياسى لأعداء محمد ومناوئيه من المنافقين، وقد سمح لهم محمد ـ مع هذا ـ بالعيش فى المدينة دون أن يمسهم منه أى أذى.

استرقاق نساء وأطفال بنى قريظة:

بقيت مسألة عميقة الجذور، لابد من التعرض لها بالبحث والمناقشة ـ كما سيأتى ـ وهى مسألة استرقاق نساء وأطفال بنى قريظة وتقسيمهم من جملة الغنائم بين المحاربين المسلمين. فأعداء الإسلام بصفة عامة، والمعترضون على الحكم الصادر والنافذ بحق يهود بنى قريظة بصفة خاصة يجعلون من ذلك نقطة هجوم على الإسلام قائلين:

إن هذا تصرف مخالف لروح القرن العشرين ومناف لحقوق الإنسان، يجعل الإسلام فى صفوف النظم الهمجية التى تبيح استعباد الإنسان لأخيه الإنسان!

وهى أخبث الشبه والتهم التى فى أبواقها ينفخ الشيوعيون والصليبيون وكل الخائفين من قيام سلطان الإسلام .. لإدخال وساوس الإلحاد والتشكيك فى صلاحية هذا الدين القيم.

وحتى الشباب المسلم صار الكثير منه ـ نتيجة لهذه الوساوس ـ نهبا لنوازع الشك والحيرة والتساؤل.. كيف أباح الإسلام الرق؟ [1] هذا الدين الذى لاشك في نزوله من عند الله، ولاشك فى صدقه، وفي أنه جاء لخير البشرية كلها في جميع أحوالها.. كيف أباح الرق؟ الدين الذى قام على المساواة الكاملة.. الذى رد الناس جميعا إلى أصل واحد، وعاملهم على أساس هذه المساواة فى الأصل المشترك.. كيف جعل الرق جزءا من نظامه وشرع له؟ أو يريد الله للناس أن ينقسموا أبدا إلى سادة وعبيد أو تلك مشيئته فى الأرض؟ أو يرضى الله للمخلوق الذى كرمه ؟ [2] إذ قال:

---

(١) شبهات حول الإسلام: ٣٣ بتصرف.

(٢)انظر : المسئولية الاجتماعية في الإسلام: ١٩٥ وما بعدها.

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ (١)

أن يصير طائفة منه سلعة تباع وتشترى كما كان الحال مع الرقيق؟

وإذا كان الله لا يرضى بذلك، فلماذا لم ينص في كتابه صراحة على إلغاء الرق، كما نص علي تحريم الخمر والميسر والربا وغيرها مما كرهه الإسلام ؟

وإن الشباب المؤمن ليعلم أن الإسلام دين الحق، ولكنه كإبراهيم عليه السلام :(٢)

﴿ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ (٣).

أما الشباب الذى أفسد الإستعمار عقله وعقائده، فإنه لا يتلبث حتى يتبين حقيقة الأمر، وإنما يميل به الهوى فيقرر دون مناقشة أن الإسلام نظام عتيق قد استنفد أغراضه!

وأما الشيوعيون خاصة فأصحاب دعاوى «علمية» مزيفة، يتلقونها من سادتهم هناك، فينتفشون بها عجبا، ويحسبون أنهم وقعوا على الحقيقة الأبدية الخالدة التى لامراء فيها ولا جدال، وهى المادية الجدلية، التى تقسم الحياة البشرية إلى مراحل اقتصادية معينة لا معدى عنها ولا محيص..

وهذا ما سنتحدث عنه بالتفصيل فى الفصل الثانى من هذا الكتاب..

السماح لليهود بالإقامة فى خيبر:

وقد عرفنا كيف أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ سمح لليهود بالإقامة فى خيبر ـ بعد تلك المعارك الطاحنة التى انتهت بالقضاء عليهم عسكريا رغم الخيانة ونقض العهد ومحاولة اغتيال النبى ﷺ كما أسلفنا ـ حتى أجلاهم عمر رضى الله عنه..

إجلاء عمر لليهود:

ويروى البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: لما فدع(٤) أهل خيبر عبد الله بن

---

(١) الإسراء: ٧٠ . (٢) انظر: فى ظلال القرآن ١: ٣٠١ ـ ٣٠٢. (٣) البقرة: ٢٦٠.

(٤) فدع ـ بفتح الفاء والمهملتين ـ الفدع ـ بفتحتين ـ زوال المفصل، فدعت يداه: إذا أزيلتا من مفاصلهما. وقال الخليل: الفدع عوج في المفاصل، وفي خلق الإنسان الثابت، إذا زاغت القدم من أصلها من الكعب وطرف الساق فهو الفدع. وقال الأصمعي: هو زيغ فى الكف بينها وبين الساعد، وفي الرجل بينها وبين الساق، هذا الذى في جميع الروايات ، وعليها شرح الخطابى، وهو الواقع فى هذه القصة. ووقع في رواية ابن السكن بالغين المعجمة، أى فدغ، وجزم به الكرماني، وهو وهم ، لأن الفدغ بالمعجمة كسر الشيء المجوف ، قاله الجوهرى، ولم يقع ذلك لابن عمر في القصة. فتح البارى: ٥: ٣٢٨.

عمر قام عمر خطيبا فقال: إن رسول الله ﷺ عامل يهود خيبر على أموالهم، وقال:

« نقركم ما أقركم الله »

وإن عبد الله بن عمر خرج إلى ماله هناك، فعدى عليه من الليل، فَفُدِعَتْ يداه ورجلاه، وليس لنا هناك عدوٌّ غيرهم، هم عدونا وتهمتنا، وقد رأيت إجلاءهم.

فلما أجمع عمر على ذلك أتاه أحد بنى أبى الحقيق فقال:

يا أمير المؤمنين، أتخرجنا وقد أقرنا محمد ﷺ وعاملَنا على الأموال وشرط ذلك لنا؟

فقال عمر: أظننت أنى نسيت قول رسول الله ﷺ :

«كيف بك إذا أخرجت من خيبر ، تعدو بك قلوصك [١] ليلة بعد ليلة ؟».

فقال: كان ذلك هزيلة [٢] من أبى القاسم.

فقال: كذبت يا عدو الله! فأجلاهم عمر وأعطاهم قيمة ما كان لهم من الثمر مالا وإبلا وعروضاً من أقتاب وحبال وغير ذلك [٣].

تلك عدالة مثالية، لم تعرفها البشرية عبر تاريخها الطويل إلا في هذا الدين القيم .

---

(١) قلوصك ـ بفتح القاف والصاد المهملة ـ : الناقة الصابرة على السير. وقيل: الشابة. وقيل: أول ما يركب من إناث الإبل . وقيل الطويلة القوائم . المرجع السابق .

(٢) هزيلة: تصغير الهزل وهو ضد الجد . المرجع السابق .

(٣) البخارى: ٥٤ ـ الشروط (٢٧٣٠)، وانظر (٦٩٤٤، ٧٣٤٨) عن أبى هريرة رضى الله عنه، وفيه «اعلموا أن الأرض لله ورسوله، وإنى أريد أن أجليكم، فمن وجد منكم بماله شيئا فليبعه، وإلا فاعلموا أن الأرض لله ورسوله» ومسلم: ٣٢ ـ الجهاد ٦١ (١٧٦٥)، وأحمد (١٦٩١، ١٦٩٤) ، عن أبى عبيدة قال: آخر ما تكلم به النبى ﷺ : « أخرجوا يهود أهل الحجاز، وأهل نجران، من جزيرة العرب..» الحديث ، والدارمى: ٢:٢٣٣، ومجمع الزوائد: ٥:٣٢٥ ، والبيهقي: ٩: ٢٠٨ .

الفصل الثانى

الإسلام والرق

تمهيد ـ استرقاق الأفراد والشعوب ـ الرق عند اليونان ـ الرق عند الهنود ـ الرق عند اليهود ـ الرق عند النصارى ـ نبأ ما قبل الإسلام ـ معاملة الرقيق ـ ثورة حكيمة منظمة ـ الكيان النفسى وعلاجه ـ أخوة كريمة ـ ثلاثة أجهزة ـ أسرى المحاربين ـ معاملة بالمثل ـ أهداف الحرب ـ حكم الضرورة ـ إجراء مؤقت ـ وسائل مكافحة الرق ـ صورتان متقابلتان .

تمهيد :

قد يقول قائل : إذا كان الإسلام قد كرم الفرد ـ كما عرفنا ـ وهو لبنة في بناء البشرية، فما لنا نراه يبيح استرقاق النساء والأطفال، كما رأينا في يهود بني قريظة ؟

ونحن نعجب لمن يتحدث عن الإسلام والرق[1] ، كأنما يتحدث عن نظامين قابلين للتعاون والتساند، أو عن طبيعتين قابلتين للاختلاط والامتزاج، على حين أن الرق والإسلام ضدان، لا يلتقيان إلا كما يلتقي سواد الليل وبياض النهار!

وهل كانت الصيحة الأولى للإسلام إلا صيحة التحرير من ربقة العبودية؟!

وهل كانت الحملة الأولى إلا حملة التطهير من ذل الخضوع، والخنوع لشيء أو لأحد غير الله؟!

إن الاسترقاق إهدار للكرامة الإنسانية، فكيف يكون من صنع الإسلام الذي أعلن كرامة الإنسان؟!

وإن الاستبداد تبديل للفطرة ، فكيف يكون من نظم الإسلام الذي هو دين الفطرة؟!

استرقاق الأفراد والأمم والشعوب :

وإن تعجب لشيء فاعجب لأن الذين يلصقون هذا الاتهام بالإسلام قوم يشهد تاريخهم بأنهم هم الذين أنشأوا الرق أبيضه وأسوده!

وأنهم أفشوه ونشروا وباءه في العالم من أبشع الطرق وأشنعها، من طريق الخداع والتمويه، ومن طريق الاختلاس والاغتصاب!

وأنهم جاوزوا فيه الحدود، ولم يكفهم استرقاق الأفراد فعمدوا إلى استرقاق الأمم والشعوب !

الرق عند اليونان :

وقد كان مذهب أرسطوا في الرق أن فريقا من الناس مخلوقون للعبودية، لأنهم

---

(١) دراسات إسلامية: ٣٧ بتصرف.

يعملون عمل الآلات التى يتصرف فيها الأحرار ذوو الفكر والمشيئة [1].فهم آلات حية تلحق فى عملها بالآلات الجامدة، ويحمد من السادة الذين يستخدمون تلك الآلات الحية أن يتوسموا فيها القدرة على الاستقلال والتمييز، فيشجعوها ويرتقوا بها من منزلة الأداة المسخرة إلى منزلة الكائن العاقل الرشـيد !

وأستاذ أرسطو ـ أفلاطون ـ يقضى فى جمهوريته الفاضلة بحرمان العبيد حق «المواطنة» وإجبارهم على الطاعة والخضوع لأحرار من سادتهم أو من السادة الغرباء، ومن تطاول منهم على سيد غريب أسلمته الدولة إليه ليقتص منه كما يريد!

وقد شرعت الحضارة نظام الرق العام، كما شرعت نظام الرق الخاص، أو تسخير العبيد في خدمة البيوت والأفراد، فكان للهياكل فى أسيا الصغرى أرقاؤها الموقوفون عليها. وكانت عليهم واجبات الخدمة والحراسة، ولم يكن من حقهم ولاية أعمال الكهانة والعبادة العامة!

الرق عند الهنـــود :

ويعتقد الهنود أن الرقيق «المنبوذين» [2] خلقوا من قدم الإله، ومن ثم فهم بخلقتهم حقراء مهينون، ولا يمكن أن يرتفعوا عن هذا الوضع المقسوم لهم إلا بتحمل الهوان والعذاب، عسى أن تنسخ أرواحهم بعد الموت مخلوقات أفضل! وبذلك تضاف إلى لعنة الوضع السيئ الذى يعيشـون فيه لعنـة أخرى روحيـة تقضى عليهم أن يرضـوا بالـذل ولا يقاوموه !

الرق عنـد اليهـود:

وسبق أن ذكرنا طرفا من التوراة فى بيان أن الحكم الذى صدر على يهود بنى قريظة قد جاء فى الإصحاح العشرين من سفر التثنية بما هو أشد، وهنا نذكر النص بكامله فى شريعة العهد القديم، كما نص عليها نفس الإصحاح، تقول للمؤمن بها [3] :

«حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير، وتستعبد لك، وإن لم

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه : ٢٨٦ بتصرف.

(٢) شبهات حول الإسلام: ٣٨ هامش.

(٣) حقائق الإسلام : ٢٩٤ وما بعدها.

تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال ، والبهائم وكل ما فى المدينة وكل غنيمتها، فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا، التى ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا أما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيبا فلا تستبقى منها نسمة ما .... » .

وأقسى من هذا الجزاء جزاء المدن التى ينجم فيها ناجم بالدعوة إلى غير إله إسرائيل، فإنها كما جاء فى الإصحاح الثالث عشر من سفر التثنية :

« فضربا تضرب بحد السيف، وتحرم بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف تجمع كل أمتعتها إلى وسط ساحتها، وتحرق بالنار.. المدينة وكل أمتعتها كاملة للرب إلهك، فتكون تلا إلى الأبد لا تبنى بعده ... » .

الرق عند النصـــارى :

ونشأت المسيحية والرق مباح، فلم تحرمه، ولم تنظر إلى تحريمه في المستقبل، وأمر «بولس» العبيد بإطاعة سادتهم كما يطيعون المسيح، فقال في رسالته إلى أهل أفسس: (١)

«أيها العبيد! أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم كما للمسيح، ولا بخدمة العين كمن يرضى الناس بل كعبيد المسيح عاملين مشيئة الله من القلب، خادمين بنية صالحة ، كما للرب ليس للناس ! عالمين أن مهما عمل كل واحد من الخير فذلك يناله من الرب عبدا كان أم حرا » .

وأوصى «بطرس» بمثل هذه الوصية، وأوجبها آباء الكنيسة، لأن الرق كفارة من ذنوب البشر، يؤديها العبيد، لما استحقوه من غضب السيد الأعظم، وأضاف القديس الفيلسوف «توما الأكوينى» رأى الفلسفة إلى رأى الرؤساء الد ينيين، فلم يعترض على الرق بل زكاه، لأنه على رأى أستاذه «أرسطو» ــ كما سبق ــ حالة من الحالات التى خلق عليها بعض الناس بالفطرة الطبيعية وليس مما يناقض الإيمان أن يقنع الإنسان من الدنيا بأهون نصيب!

نبأ ما قبل الإسلام:

وانقضى على العالم عصور بعد عصور، ، وهذا النظام شائع فى أرجائه بين الأمم

---

(١) المرجع السابق: ٢٨٥ وما بعدها بتصرف.

المعروفة فى القارات الثلاث، ينتشر بين أمم الحضارة ، وقبائل البادية التي يكثر فيها غارات السلب والمرعى، ،ويقل انتشاره بين الأمم الزراعية عند أودية الأنهارالكبرى كوادى النيل وأودية الأنهار الهندية. إلا أن الأمم فى الأودية الهندية كانت تأخذ بنظام الطبقة المسخرة أو الطبقة المنبوذة، وهى فى حكم الرقيق العام من وجهة النظر إلى المكانة الاجتماعية، والحقوق الإنسانية .

معاملة الرقيق :

وهنا وقفة عند حقائق التاريخ [1]. ففظائع الرق الرومانى في العالم ترينا أن الرقيق في عرف الرومان كانوا «شيئا» لا بشرا! «شيئا» لا حقوق له البتة، وإن كان عليه كل ثقيل من الواجبات!

ولنعلم أولا من أين كان يأتى هذا الرقيق؟ كان يأتى من طريق الغزو! ولم يكن هذا الغزو لفكرة ولا مبدأ، وإنما كان سببه الوحيد شهوة استعباد الآخرين وتسخيرهم لمصلحة الرومان! فلكى يعيش الرومانى عيشة البذخ والترف يستمتع بالحمامات الباردة والساخنة والثياب الفاخرة، وأطايب الطعام من كل لون، ويغرق في المتاع الفاجر.. كان لابد لكل هذا من استعباد الشعوب الأخرى وامتصاص دمائها. ومصر مثل لذلك حين كانت فى قبضة الرومان، قبل أن يخلصها من نيرهم الإسلام! إذ كانت حقل قمح للإمبراطورية، ومورد للأموال !

فى سبيل هذه الشهوة الفاجرة كان الاستعمار الرومانى، وكان الرق الذى نشأ من ذلك الاستعمار. أما الرقيق فكانوا «أشياء» ليس لها كيان البشر، ولاحقوق البشر! كانوا يعملون فى الحقول، وهم مصفدون في الأغلال الثقيلة التى تكفي لمنعهم من الفرار! ولم يكونوا يطعمون إلا إبقاء على وجودهم ليعملوا، لا لأن من حقهم ـ حتى كالبهائم ـ أن يأخذوا حاجاتهم من الغذاء! وكانوا ـ في أثناء العمل ـ يساقون بالسوط، لغير شيء إلا للذة الفاجرة التى يحسها السيد أو وكيله في تعذيب هذه المخلوقات. ثم كانوا ينامون فى «زنزانات» مظلمة كريهة الرائحة تعيث فيها الحشرات والفئران.. ولا يتاح لهم حتى الفراغ الذى يتاح بين بقرة وبقرة فى حظيرة الحيوانات!

ولكن الشناعة الكبرى كانت شيئا أفظع من كل ذلك، وأدل على الطبيعة الوحشية

---

(١) شبهات حول الإسلام: ٣٥ بتصرف.

التي ينطوى عليها ذلك الرومانى القديم، والذى ورثها عنه الأوربى الحديث فى وسائل الاستعمار والاستغلال.

تلك كانت حلقات المبارزة بالسيف والرمح، وكانت من أحب المهرجانات إليهم، فيجتمع إليها السادة وعلى رأسهم الإمبراطور أحيانا، ليشاهدوا الرقيق يتبارزون مبارزة حقيقية، توجه فيها طعنات السيوف والرماح إلى أى مكان فى الجسم بلا تحرر ولا احتياط من القتل! بل كان المرح يصل إلى أقصاه، وترتفع الحناجر بالهتاف والأكف بالتصفيق وتنطلق الضحكات السعيدة العميقة الخالصة حين يقضى أحد المتبارزين على زميله قضاء كاملا، فيلقيه طريحا على الأرض فاقد الحياة!

ذلك كان الرقيق فى العالم الرومانى، ولا نحتاج أن نقول شيئا عن الوضع القانونى للرقيق عندئذ وعن حق السيد المطلق في قتله وتعذيبه واستغلاله، دون أن يكون له حق الشكوى، ودون أن تكون هناك جهة تنظر فى هذه الشكوى أو تعترف بها، فذلك لغو بعد كل الذى سردناه!

ولم تكن معاملة الرقيق في فارس والهند وغيرها تختلف كثيرا عما ذكرنا، من حيث إهدار إنسانية الرقيق إهدارا كاملا، وتحميله بأثقل الواجبات، دون إعطائه حقا مقابلها، وإن كانت تختلف فيما بينها قليلا أو كثيرا في مدى قسوتها وبشاعتها!

ثورة حكيمة منظمة:

وعلي هذه الحالة كان العالم كله يوم مبعث الدعوة الإسلامية، ليس فيه من يستنكر هذه الحالة أو من يشعر بحاجة إلي تعديل فيها، حيث يكثر الأرقاء أو يقلون! بل كانت هناك شرائع في الشرق والغرب والشمال والجنوب فتحت باب الرق على مصراعيه، وكان جزاء، القاتل أن يكون عبدا لولى الدم! وكان المدين الذى يعجز عن وفاء دينه ينقلب مملوكا لدائنه [1] ! وكان السارق الذى يضبط عنده متاع يصبح رقيقا لرب المال! ومصداقه في قصة يوسف عليه السلام:

﴿ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [2].

وكان السلطان المطلق المخول لرب الأسرة على أعضائها يبيح له أن يقتل منهم من

(١) دراسات إسلامية: ٣٨ بتصرف. (٢) يوسف: ٧٥.

شاء، وأن يبيع من شاء وكان نير العبودية متى وضع على عنق فلا فكاك لها منه أبد الدهر! إلا أن يتفضل السيد بفكها بمحض إرادته!

هكذا كانت أوضاع المجتمع الإنساني قبل ظهور محمد خاتم النبيين وقدوة المصلحين ﷺ .

فماذا صنع محمد ﷺ حين جاء بالإسلام؟

إنه أعلنها ثورة غاضبة على هذه الأوضاع كلها.. ولكنها ثورة حكيمة منظمة، كثورته على الخمر، وثورته على الربا وثورته على سائر النظم الفاسدة المزمنة، والرذائل المورثة المتمكنة!

لقد كانت سوق الرق مقبرة مفتحة المداخل، موصدة المخارج، كان الرق وباء يتساقط فيه الناس تساقط الفراش فى النار، وكان الحريق أعظم من أن تطفئه نفخة واحدة، والداء أوسع من أن يعالج بوسيلة مفردة!

والإسلام ـ وهو الدين القيم ـ نزل لتهذيب البشر فى حدود فطرتهم [1] وطبيعتهم البشرية، والارتفاع بهم ـ دون كبت ولاقهر ـ إلى أقصى ما يستطيعونه من ارتفاع. وقد وصل إلى حد الإعجاز في ذلك من حيث النوع والكم إلى ما لم يصل إليه نظام آخر في التاريخ. ولكنه مع ذلك كله لم يكن مكلفا أن يحول جموع الناس إلى هذا المستوى النادر. ولو أراد الله ذلك لخلق الناس منذ البدء ملائكة، وكلفهم تكاليف الملائكة:

﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [2] .

ولكنه، وقد خلقهم بشرا، يعرف طاقاتهم، والمدى اللازم لإنضاجهم، ويكفى الإسلام على أى حال أن يكون هو الذى بدأ حركة التحرير في العالم، قبل أن تفيىء إليها البلاد التى لم تعتنق الإسلام بعدة قرون، وأنه في الواقع قد جفف منابع الرق القديمة كلها فى الجزيرة العربية، وكان جديرا أن يلغيه بالنسبة للمستقبل في العالم الإسلامى، لولا منبع جديد ظل يفيض بالرق في كل مكان، ولم يكن فى وسع الإسلام يومئذ القضاء عليه، لأنه لا يتعلق به وحده، وإنما يتعلق بأعدائه الذين ليس له عليهم سلطان، ذلك هو رق الحرب الذى نحن بصدد الحديث عنه.

---

(١) شبهات حول الإسلام: ٤٥ بتصرف.

(٢) التحريم : ٦ .

الكيان النفسى وعلاجه :

ويجب أن نذكر أن الحرية لا تمنح، وإنما تؤخذ. وتحرير الرقيق بإصدار مرسوم لم يكن ليحرر الرقيق!

والتجربة الأمريكية في تحرير الرقيق بجرة قلم علي يد «إبراهام لنكولن» خير شاهد لما نقول، فالعبيد الذين حررهم «لنكولن ــ من الخارج ــ بالتشريع ، لم يطيقوا الحرية، وعادوا إلى سادتهم يرجونهم أن يقبلوهم عبيدا لديهم كما كانوا، لأنهم ــ من الداخل ــ لم يكونوا قد تحرروا بعد ».

والمسألة على غرابتها ليست غريبة حين ينظر إليها على ضوء الحقائق النفسية. فالحياة عادة. والملابسات التى يعيش فيها الإنسان هى التي تكيف مشاعره، وتصوغ أحاسيسه، وأجهزته النفسية ــ على الرغم من أن دعاة المذهب المادى يقولون: إن الملابسات الخارجية هى التى «تخلق» المشاعر! ونحن لا نؤمن بذلك؛ لأن فيه مغالطة صارخة. فهناك رصيد نفسى سابق فى وجوده لهذه الملابسات والملابسات «تكيف» هذا الرصيد ، لكنها لا تخلقه من العدم ــ والكيان النفسى للعبد يختلف عن الكيان النفسى للحر، لا لأنه جنس آخر كما ظن القدماء ولكن لأن حياته فى ظل العبودية الدائمة جعلت أجهزته النفسية تتكيف بهذه الملابسات، فتنمو أجهزة الطاعة إلى أقصى حد، وتضمر أجهزة المسئولية واحتمال التبعات إلى أقصى حد..

فالعبد يحسن القيام بكثير من الأمور حين يأمره بها سيده، فلا يكون عليه إلا الطاعة والتنفيذ. ولكنه لايحسن شيئا تقع مسؤليته على نفسه، ولو كان أبسط الأشياء، لا لأن جسمه يعجز عن القيام بها، ولا لأن فكره ــ فى جميع الأحوال ــ يعجز عن فهمها، ولكن لأن نفســه لا تطيق احتمال تبعاتها، فيتخيل فيها أخطارا موهومة، ومشكلات لا حل لها، فيفر منها إبقاء على نفسه من الأخطار!

ولعل الذين ينعمون النظر فى الحياة الشرقية فى العهود الأخيرة يدركون أثر هذه العبودية الخفية التى وضعها الاستعمار الخبيث في نفوس الشرقيين ليستعبدهم للغرب، يدركونها فى المشروعات المعطلة التى لا يعطلها ــ فى كثير من الأحيان ــ إلا الجبن عن مواجهة نتائجها! والمشروعات المدروسة التى لا تنفذها الحكومات، حتى تستقدم خبيرا إنجليزيا أو أمريكيا ... إلخ ، ليحتمل عنها مسئولية المشروع ، ويصدر الإذن بالتنفيذ!

والشلل المروع الذى يخيم على المواطنين فى الدواوين ويقيد إنتاجهم بالروتين المتحجر، لأن أحدا من الموظفين لا يستطيع أن يصنع إلا ما يأمره به «السيد» الموظف الكبير، وهذا بدوره لا يملك إلا إطاعة «السيد» الوزير لا لأن هؤلاء جميعا يعجزون عن العمل ولكن لأن جهاز التبعات عندهم معطل، وجهاز الطاعة عندهم متضخم، فهم أشبه بالعبيد، وإن كانوا رسميا من الأحرار!

هذا التكيف النفسى للعبد هو الذى يستعبده.. وهو ناشئ فى أصله من الملابسات الخارجية بطبيعة الحال، ولكنه يستقل عنها، ويصبح شيئا قائما بذاته كفرع الشجرة الذى يتدلى إلى الأرض ثم يمد جذورا خاصة به ويستقل عن الأصل. وهذا التكيف النفسى لايذهب به إعلان تصدره الدولة بإغلاق الرق، بل ينبغى أن يغير من الداخل، بوضع ملابسات جديدة تكيف المشاعر على نحو آخر، وتنمي الأجهزة الضامرة فى نفس العبد، وتصنع كيانا بشريا سويا من كيانه المشوه الممسوخ!

وذلك ماصنعه الإسلام.

أخوة كريمـــة :

إن هذا الدين يتعامل مع الإنسان في حدود فطرته، وفي حدود طاقته، وفي حدود واقعه، وفي حدود حاجاته الحقيقية.. وقد جاء ليرد لهؤلاء البشر إنسانيتهم (١) ... جاء ليقول للسادة عن الرقيق:

﴿ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ (٢).

وذلك فى بيان أن العلاقة بين السادة والرقيق ليست علاقة الاستعلاء والاستعباد، أو التسخير أو التحقير، وإنماهى علاقة القربى والأخوة. فالسادة «أهل» الجارية يستأذنون فى زواجها :

﴿ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ (٣)

جاء ليأمر السادة أمرا أن يحسنوا معاملتهم للرقيق:

---

(١) المرجع السابق: ٣٧ بتصرف. (٢) النساء: ٢٥.

(٣) النساء : ٢٥.

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾[1].

ومن ثم لن يعد الرقيق «شيئا»! وإنما صار بشراً له روح كروح السادة، وقد كانت الأمم الأخرى كلها تعتبر الرقيق جنسا آخر غير جنس السادة، خلق ليستعبد ويستذل، ومن هنا لم تكن ضمائرهم تتأثم من قتله وتعذيبه وكيه بالنار، وتسخيره فى الأعمال القذرة والأعمال الشاقة ـ كما عرفنا ـ ومن هنالك رفعه الإسلام إلى مستوى الأخوة الكريمة،لا في عالم المثل والأحلام فحسب، بل فى عالم الواقع كذلك. ويشهد التاريخ ـ الذى لم ينكره أحد ـ حتى الصليبيون المتعصبون من أهل أوربا ـ بأن معاملة الرقيق فى صدر الإسلام بلغت حدا من الإنسانية لم تبلغه فى أى مكان آخر حدا جعل الرقيق المحررين يأبون مغادرة سادتهم السابقين ـ مع أنهم يملكون ذلك بعد أن تحرروا اقتصاديا، وتعودوا علي تحمل تبعات أنفسهم ـ لأنهم يعتبرونهم أهلا لهم، يربطهم ما يشبه رابطة الدم! بل أقوى!

وأصبح الرقيق كائنا إنسانيا له كرامة يحميها القانون، ولا يجوز الاعتداء عليها بالقول ولا بالفعل.

ولا شىء كحسن المعاملة يعيد توازن النفس المنحرفة، ويرد إليها اعتبارها، فتشعر بكيانها الإنسانى، وكرامتها الذاتية، وحين ذلك تحسن طعم الحرية فتتذوقه، ولاتنفر منه، كما نفر عبيد أمريكا المحررون، الذين لم يطيقوا الحرية!

وقد وصل الإسلام فى حسن المعاملة ورد الاعتبار الإنسانى للرقيق إلى درجة عجيبة، فلم يكتف بالنية الطيبة كما فعل «لنكولن» حين أصدر تشريعا لارصيد له فى داخل النفوس، مما يثبت عمق إدراك الإسلام للطبيعة البشرية، وفطنته إلى خير الوسائل لمعالجتها. وهذا إلى جانب تطوعه بإعطاء الحقوق لأصحابها، مع تربيتهم علي التمسك بها واحتمال تبعاتها ـ على أساس الحب والمودة بين جميع طوائف المجتمع ـ قبل أن يتصارعوا من أجل هذه الحقوق، كما حدث في أوربا، ذلك الصراع البغيض الذى يجفف المشاعر، ويورث

---

(١) النساء: ٣٦.

الأحقاد. فيفسد كل ما يمكن أن تصيبه البشرية من الخير في أثناء الطريق.

ثلاثـة أجهـــزة:

وإن نظرة إلى السبيل الذى أعده نبى الإسلام لإنقاذ الإنسانية المحترقة المتآكلة ترينا أنه جهاز مركب من ثلاثة أجهزة: (١)

ـ نطاق من الحواجز ضربه حول النار، حتى لا يندلع لهيبها إلى خارجها .

ـ ومفاتيح فتح بها أبواب الدار، لينطلق منها كل من استطاع النجاة .

ـ وميازيب من الغيث صبها على من بقى فى الدار، لتكون النار عليهم بردا وسلاما.. ريثما يتيسر لهم الخروج منها .

وسأفسر لك ذلك:

فأما النطاق الذى ضربه الإسلام حول هذه المنطقة المحترقة، فذلك هو الدواء الواقى الذى أوقف به سير الداء، حتى لا تسرى عداوة إلى غير المصابين.

ذلك هو القانون الذى منع به استرقاق الأحرار وأمّنهم منه، بعد أن كانوا مهددين به من كل جانب.. فاليوم لا الخطف والسلب، ولا البيع والشراء، ولا التغلب فى المشاجرات والغارات، ولا تحكم رب الأسرة، ولا العجز عن وفاء الدين، ولا السرقة ولا القتل.. لم يعد شيء من هذا كله، منذ ظهر الإسلام، يصلح مبررا لاستعباد الإنسان .

ولم يكتف الإسلام بتحصين الأحرار أنفسهم من خطر الاسترقاق، بل إنه حال بينهم وبين أن يخرج من أصلابهم ذرية تستعبد، وذلك بمنع التزاوج بين الأحرار والإماء إلا فى حالة الاضطرار، وخشية العنت، وهذا من أوضح الأدلة على أن الإسلام قبل أن يبدأ بالعلاج الشافى من الرق القاتل بالفعل، أراد بهذه التشريعات الواقية منع إنشاء فئة جديدة من الأرقاء.

أسرى المحاربين:

غير أن ها هنا شبهة تجول في الخواطر، وهى موضوع حديثنا، ونرى من الأمانة

---

(١) دراسات إسلامية: ٣٨ بتصرف.

العلمية أن نعرضها، وأن نعالج كشفها وجلاء الحق فيها.

أما الشبهة فهى أن الإسلام وإن كان قد سد كل الأبواب التى أشرنا إليها، والتى كانت تتخذ ذريعة إلى إنشاء رق جديد ، إلا أنه قد ترك بجانب هذه الأبواب منفذا صغيرا لم يغلقه ذلك هو حال الحرب الإسلامية المشروعة، وهى التى يعتدى فيها الكفار على بلاد الإسلام.

وقد كان العرف السائد يومئذ (١) هو استرقاق أسرى الحرب أو قتلهم.. وجاء فى الموسوعة التاريخية المسماة «تاريخ العالم» ما ترجمته: وفي سنة ٥٩٩ رفض الإمبراطور الروماني «موريس» ـ بسبب رغبته فى الإقتصاد ـ أن يفتدى بضع ألوف من الأسرى وقعوا فى يد الآوار «فقتلهم» « خان الآوار » عن بكرة أبيهم!

وكان هذا العرف قديما جدا، موغلا فى ظلمات التاريخ، يكاد يرجع إلى الإنسان الأول، ولكنه ظل ملازما للإنسانية فى شتى أطوارها!

وجاء الإسلام والناس على هذا الحال، ووقعتّ بينه وبين أعدائه الحروب، فكان الأسرى المسلمون يسترقون عند أعداء الإسلام، فتسلب حرياتهم، ويعامل الرجال منهم بالعسف والظلم الذى كان يجرى يومئذ على الرقيق! وتنتهك أعراض النساء لكل طالب يشترك فى المرأة الواحدة الرجل وأولاده وأصدقائه من يبغى الاستمتاع منهم، بلا ضابط ولانظام، ولا احترام لإنسانية أولئك النساء أبكارا كن أم غير أبكار! أما الأطفال ـ إن وقعوا أسرى ـ فكانوا ينشأون فى ذل العبودية البغيض!

معاملـة بالمثــل :

عندئذ لم يكن في وسع الإسلام أن يطلق ـ ابتداء ـ سراح من يقع في يده من أسرى الأعداء.. فليس من حسن السياسة أن تشجع عدوك عليك بإطلاق أسراه، بينما أهلك وعشيرتك وأتباع دينك يسامون الخسف والعذاب عند هؤلاء الأعداء. والمعاملة بالمثل هنا هى أعدل قانون تستطيع استخدامه، أو هى القانون الوحيد.

وإذن فقد كانت ضرورة لا فكاك للإسلام منها، مادام العدو مصرا على استرقاق الأسرى، والإسلام لاسلطان له عليه.. ضرورة تظل قائمة حتى يتفق العالم على مبدأ آخر

---

(١) شبهات حول الإسلام : ٥٠ بتصرف.

فى معاملة هؤلاء الأسرى غير مبدأ الاسترقاق.

أهـداف الحـرب:

ومع ذلك فينبغي أن نلاحظ فروقا عميقة بين الإسلام وغيره من النظم فى شأن الحرب وأسرى الحرب.

كانت الحروب - وما تزال - في غير العالم الإسلامى لا يقصد بها إلا الغزو والفتك والاستعباد! كانت تقوم على رغبة أمة فى قهر غيرها من الأمم، وتوسيع رقعتها على حسابها، أو لاستغلال مواردها وحرمان أهلها منها، أو لشهوة شخصية تقوم فى نفس ملك أو قائد حربى، ليرضى غروره الشخصى وينتفش كبرا وخيلاء، أو لشهوة الانتقام.. أو ما إلى ذلك من الأهداف الأرضية الهابطة!

وكان الأسرى الذين يسترقون، لايسترقون لخلاف في عقيدة، ولا لأنهم في مستواهم الخلقى أو النفسى أو الفكرى أقل من آسريهم، ولكن فقط لأنهم غلبوا فى الحرب.

وكذلك لم تكن لهذه الحرب تقاليد تمنع من هتك الأعراض أو تخريب المدن المسالمة، أو قتل النساء والأطفال والشيوخ، وذلك منطقى مع قيامها لغير عقيدة ولا مبدأ ولاهدف رفيع.

فلما جاء الإسلام أبطل ذلك كله، وحرم الحروب كلها، إلا أن تكون جهادا فى سبيل الله.. جهادا لدفع اعتداء عن المسلمين.. أو لتحطيم القوى الباغية التي تفتن الناس عن دينهم بالقهر والعنف.. أو لإزالة القوى الضالة التى تقف في سبيل الدعوة وإبلاغها للناس ليروا الحق ويسمعوه:

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (١)

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ (٢).

فهى دعوة سلمية لا تكره أحد:

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ (٣).

---

(١) البقرة: ١٩٠ (٢) الأنفال: ٣٩ . (٣) البقرة: ٢٥٦

وبقاء اليهود والمسيحيين في العالم الإسلامى علي دينهم حتى اللحظة برهان قاطع لا يقبل الجدل ولا المماحكة، يثبت أن الإسلام لم يكره غيره علي اعتناقه بقوة السيف (١).

فإذا قبل الناس الإسلام، واهتدوا إلي دين الحق، فلا حرب ولاخصومة، ولا خضوع من أمة لأمة ولا تمييز بين مسلم ومسلم على وجه الأرض، ولا فضل لعربى على عجمى إلابالتقوى.

فمن أبى الإسلام وأراد أن يحتفظ بعقيدته في ظل النظام الإسلامى.. فله ذلك دون إكراه ولا ضغط، على أن يدفع الجزية مقابل حماية الإسلام له، بحيث تسقط الجزية أو ترد إن عجز المسلمون عن حمايته (٢). فإذا أبوا الإسلام والجزية فهم إذن معاندون متبجحون، لا يريدون للدعوة السلمية أن تأخذ طريقها، وإنما يريدون أن يقفوا بالقوة المادية في طريق النور الجديد يحجبونه عن عيون قوم، ربما اهتدوا لو خلى بينهم وبين النور.

عندئذ فقط يقوم القتال، ولكنه لا يقوم بغير إنذار وإعلان، لإعطاء فرصة أخيرة لحقن الدماء، ونشر السلم في ربوع الأرض:

﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ (٣).

تلك هى الحرب الإسلامية، لا تقوم على شهوةالفتح، ولارغبة الاستغلال، ولا دخل فيها لغرور قائد حربى أو ملك مستبد، فهي حرب في سبيل الله وفي سبيل هداية البشرية. حين تخفق الوسائل السلمية كلها في هداية الناس.

ولها مع ذلك تقاليد عامة ـ كما سبق تفصيل القول في ذلك ـ وهنا نذكر قول الرسول ﷺ فيما رواه مسلم عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ، إذا أمَّر أميراً على جيش أو سرية، أوصاه فى خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا ثم قال:

«اغزوا باسم الله. في سبيل الله. قاتلوا من كفر بالله. اغزوا ولا تغلوا. ولا تغدروا ولاتمثلوا ولا تقتلوا وليدا. وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال (أو خلال) فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. ثم

(١) شهد بذلك مسيحى أوربى هو السير.و. أرنولد في كتابه «الدعوة إلى الإسلام».

(٢) انظر ماورد في المرجع السابق: ٥٨ . (٣) الأنفال: ٦١

ادعهم إلى الإسلام. فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين. وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك ، فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين . فإن أبَوْا أن يتحوّلوا منها ، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين . ولا يكون لهم فى الغنيمة والفىء شىء . إلا أن يجاهدوا مع المسلمين،. فإن هم أبوا فسلهم الجزية. فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم. وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه . فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه. ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك. فإنكم إن تُخْفِرُوا ذممكم وذمم أصحابكم، أهون من أن تُخْفِرُوا ذمة الله وذمة رسوله. وإذا حاصرت أهل حصن ، فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله. ولكن أنزلهم على حكمك . فإنك لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا » [١] .

فلا قتل لغير المحارب الذى يقف بالسلاح يقاتل المسلمين، ولا تخريب ولاتدمير، ولا هتك للأعراض، ولا إطلاق لشهوة الشر والإفساد:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [٢] .

وقد راعى المسلمون تقاليدهم النبيلة هذه فى كل حروبهم ، حتى فى الحروب الصليبية الغادرة ، حين انتصروا على عدوهم الذى كان في جولة سابقة قد انتهك الحرمات، واعتدى على المسجد الأقصى فهاجم المحتمين فيه بحمى الله ـ رب الجميع ـ وأسال دماءهم فيه أنهارا، فلم ينتقموا لأنفسهم حين جاءهم النصر، وهم يملكون الإذن من الدين بالمعاملة بالمثل:

﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [٣] .

ولكنهم ضربوا المثل الأعلى الذى يعجز عنه غير المسلمين فى كل الأرض، حتى العصر الحديث.

---

(١) مسلم: ٣٢ ـ الجهاد ٣ (ت ١٧٣١)، وراه أبو داود (٢٥٩٥) عون المعبود، والترمذى(١٦١٧) وابن ماجة (٢٨٥٨) والدارمى : ٢: ٢١٦ ـ ٢١٧، وأحمد : ٥: ٣٥٨.

(٢) القصص : ٧٧. (٣) البقرة: ١٩٤.

ذلك فارق أساسى في أهداف الحرب وتقاليدها بين المسلمين وغير المسلمين. وقد كان الإسلام يملك لو أراد ـ والحق يسنده فى ذلك ـ أن يعتبر من يقع في يده من الأسرى ـ ممن وقفوا بالقوة المسلحة يعاندون الهدى ، ويصرون على وثنيتهم الهابطة وشركهم المخرف ـ قوما ناقصى الآدمية، ويسترقهم بهذا المعنى وحده فما يصر بشرا على هذه الخرافة ـ بعد إذ يرى النور ـ إلا أن يكون فى نفسه هبوط، أو في عقله انحراف، فهو ناقص فى كيانه البشرى ، غير جدير بكرامة الآدميين ، وحرية الأحرار من بنى الإنسان!

ومع ذلك فلم يلجأ الإسلام إلى هذا الطريق، ولم يسترق الأسرى لمجرد اعتبار أنهم ناقصون فى آدميتهم. وإنما لجأ إلى المعاملة بالمثل فحسب ـ كما أسلفنا ـ فعلق استرقاقه للأسرى على اتفاق الدول المتحاربة على مبدأ آخر غير الاسترقاق، ليضمن فقط ألا يقع أسرى المسلمين في ذل الرق بغير مقابل.

حكم الضرورة :

وهنا يرد سؤال: أليست الشريعة قد أباحت للمسلمين في هذه الحال أن يعاملوا أسرى المحاربين لهم بإحدى خطط ثلاث:

ـ إما بإطلاق سراحهم.

ـ وإما باسترقاقهم.

ـ وإما بقتلهم.

والجواب (١) أن الأمر ليس كما يظنه الناس فى هذه الخطط الثلاث. فالواقع أنها فى نظر الإسلام، ليست سواء فى المشروعية. فنحن إذا نظرنا فى نصوص القرآن الكريم، لم نجد فيه أثرا لقتل الأسير ولا استرقاقه، وإنما نجد فيه مصيرا واحدا كريما، وهو إطلاق سراحه ببدل أو بغير بدل:

﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ (٢).

---

(١) دراسات إسلامية: ٤٠ بتصرف.، والمسئولية الاجتماعية فى الإسلام: ٢١١.

(٢) محمد: ٤.

كما أننا إذا تتبعنا سنة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ لم نجد فيها أنه أذن قط بقتل الأسير إلا في حالة شاذة نادرة، كان الأسير فيها معروفا بخطورته وشدة نكايته بالمسلمين، فهو ليس قاعدة عامة، وإنما هو استثناء يطبق على الشاذين الخطرين!

وهذا هو ما يعرف فى لغة العصر باسم عقوبة مجرمى الحرب (١).

بقى الاسترقاق.. وواضح أنه يلى القتل في القسوة والشناعة، وأن الإسلام ينظر إليه كنظرته إلى القتل، كما أن الحرية فى نظره شقيقة الحياة، ألا ترى كيف جعل كفارة القتل الخطأ تحرير رقبة؟

إن هذا هو تعويض الحياة بالحياة ، فإن رفع الرقيق إلى مستوى الحرية يعد. إدراجا له فى زمرة الأحياء.. بعد أن كان محسوبا فى عداد الأموات.

وهكذا يتبين لنا أنه ليس فى روح التشريع الإسلامى ولا في نصوصه مايشجع المسلمين على استرقاق أسراهم، أو يجعله فى نظرهم سواء هو والمن على هؤلاء الأسرى بالحرية، فإن لجأ الإسلام يوما إلى استرقاق الأسير فإنما يكون ذلك نزولا على حكم الضرورة، اتقاء لخطره ، وكسرا لشوكته وشوكة قومه.

إجـــراء مؤقـت :

على أنه لا يجعل ذلك مصيره النهائى.. وإنما يأخذه إجراء مؤقتا، وخطوة انتقالية إلى الحل الصحيح الذى يرضاه، ويلح فى المطالبة بتحقيقه.. ألا وهو التحرر الكامل .

وســـائل مكافحـــة الرق :

وهكذا ينساق بنا البحث إلى الشطر الثانى من الوسائل التى أعدها الإسلام لمكافحة الرق، وأعنى بها تلك الأبواب الواسعة الكثيرة التى فتحها الإسلام لإخراج الأرقاء إلى فضاء الحرية .

ولعل أول مفتاح لهذه الأبواب كان هو مفتاح القلوب.. فقد أخذ الإسلام يحرض الناس على عتق الرقاب ويرغبهم فيها بمختلف الوسائل، قال تعالى:

﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ ﴾ (١) .

هذه هى العقبة (٢) التى تقف بين الإنسان وبين الجنة، ولو تخطاها لوصل! وتصويرها

---

(١) انظر : نفحات رمضان وأثرها فى تكوين الشخصية الإسلامية : ٢٠٥ وما بعدها . (٢) البلد: ١١ ـــ ١٣ .

كذلك حافز قوى، واستجاشة للقلب البشرى وتحريك له ليقتحم العقبة، وقد وضحت ووضح معها أنها الحائل بينه وبين هذا المكسب الضخم :

﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴾

ففيه تخصيص ودفع وترغيب!

ثم تفخيم لهذا الشأن وتعظيم:

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴾

إنه ليس تضخيم العقبة، ولكنه تعظيم شأنها عند الله، ليحفز به «الإنسان» إلى اقتحامها وتخطيها ، مهما يتطلب ذلك من جهد ومن كبد. فالكبد واقع واقع . وحين يبذل لا قتحام العقبة يؤتى ثمره ويعوض المقتحم عما يكابده، ولايذهب ضياعا، وهو واقع على كل حال !

ويبدأ كشف العقبة وبيان طبيعتها بالأمر الذى كانت البيئة الخاصة التى تواجهها الدعوة فى أمس الحاجة إليه : فك الرقاب العانية.. وقد ورد أن فك الرقبة هو المشاركة فى عتقها، وأن العتق هو الإستقلال بهذا.. وأيا ما كان المقصود فالنتيجة الحاصلة واحدة.

وقد نزل هذا النص والإسلام فى مكة محاصر، وليست له دولة تقوم على شريعته.

ويذكر التاريخ أن عددا ضخما من الأرقاء قد حرر بطريق العتق ، (١) وأن هذا العدد الضخم لا مثيل له فى تاريخ الأمم الكبرى، لاقبل الإسلام ، ولا بعده بقرون عدة، حتى مطلع العصرالحديث. كما أن عوامل عتقهم كانت إنسانية بحتة، تنبع من ضمائر الناس ابتغاء مرضاة الله، ولاشىء غير مرضاة الله.

مفتاح آخر هو مفتاح خزائن الدولة (٢) إذ جعل فيها سهما مقررا في كل عام لا فتداء الأسرى وتحرير المستعبدين:

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ (٣) .

وبهذا وذاك يكون الإسلام قدخطا خطوات فعلية واسعة في سبيل تحرير الرقيق (٤).

---

(١) فى ظلال القرآن: ٦ : ٣٩١١ بتصرف. (٢) شبهات حول الإسلام : ٤١ .

(٣) دراسات إسلامية: ٤١ ، والمسئولية الاجتماعية فى الإسلام: ٢١٢ بتصرف .

(٤) التوبة : ٦٠ .

وسبق بها التطور التاريخي كله بسبعة قرون على الأقل، وزاد على هذا التطور عناصر ـ كرعاية الدولة ـ لم يفئ إليها العالم إلا في مطلع تاريخه الحديث. وعناصر أخرى لم يفئ إليها أبدا، سواء في حسن معاملة الرقيق، أو في عتقه تطوعا ـ كما أسلفنا ـ بغير ضغط من التطورات الاقتصادية أو السياسية التي اضطرت الغرب اضطرار لتحرير الرقيق كما تقول الحضارة الزائفة!

وبهذا تسقط حذلقة الشيوعيين ودعاواهم «العلمية» الزائفة التي تزعم أن الإسلام حلقة من حلقات التطور الاقتصادي جاءت في موعدها الطبيعي حسب سنة المادية الجدلية ـ فها قد سبقت موعدها بسبعة قرون ـ والتي تزعم أن كل نظام ـ بما في ذلك الإسلام ـ إن هو إلا انعكاس للتطور الاقتصادي القائم وقت ظهوره، وأن كل عقائده وأفكاره تلائم هذا التطور وتستجيب له ولكنها لا تسبقه ، ولا تستطيع أن تسبقه، كما قرر العقل المزعوم! عقل « ماركس »! فها هو الإسلام لم يعمل بوحي النظم الاقتصادية القائمة حيئذ في جزيرة العرب وفي العالم كله، لا في شأن الرقيق، ولا في غيره وإنما كان ينشئ نظمه تطوعا وإنشاء على نحو غير مسبوق، ولا يزال في كثير من أبوابه متفردا في التاريخ .

ومفتاح ثالث (٢) ، وهو مفتاح قانون الكفارات ، وهو القانون الذي يجعل عتق الرقاب فريضة لازمة لمحو خطيئة من الخطايا، كالحنث في اليمين، والفطر في رمضان والقتل الخطأ، وغير ذلك.

ومن أهم هذه الأنواع: كفارة الإساءة التي تقع من السيد في حق المملوك نفسه، وفي ذلك يقول الرسول الحبيب المحبوب ﷺ فيما رواه مسلم وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما :

«من لطم مملوكه، أو ضربه، فكفارته أن يعتقه» (٣).

وفي رواية عن ابن مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: كنت أضرب غلاما لي، فسمعت من خلفي صوتا:

« اعلم ، أبا مسعود ! لله أقدر عليك منك عليه» .

فالتفت فإذا هو رسول الله ﷺ. فقلت: يارسول الله! هو حر لوجه الله. فقال:

---

(١) شبهات حول الإسلام: ٤٢ بتصرف .

(٢) دراسات إسلامية : ٤١، والمسئولية الاجتماعية في الإسلام: ٢١٣ بتصرف.

(٣)مسلم: ٢٧ ـ الأيمان ٢٩ (١٦٥٧) ، وأحمد: ٢: ٢٥، ٤٥، ٦١، أبو داود (٥١٦٨).

«أما لو لم تفعل، للفحتك النار، أو لمستك النار» [1]

هذا جزاء اللطمة أوالضربة أما الجرح أو تشويه الجسم، فإن حكمه عند أكثر الأئمة أنه يصير العبد حرا بمجرد إصابته، فينزع من ملك السيد قهرا عنه. وكذلك إذا كلفه سيده أعمال فوق طاقته وتكرر منه ذلك.

وهكذا يقودنا الحديث إلي الشطر الثالث والأخير من العلاج الإسلامى الرحيم.

لقد رأينا أبوابا فتحت أمام الحرية.. أشرنا إلى بعضها: وغيرها كثيرا مثل عتق الأصل إذا ملكه الفرع، ومثل المكاتبة، والتدبير، والاستيلاد ...

ورأينا أبوابا أغلقت دون الرق..

وبين هذين الطرفين ترى طائفة من الأرقاء يتوجهون نحو باب الخروج، ولكنهم لم يصلوا إليه بعد..

إنهم هنالك ينتظرون دورهم فى استنشاق هواء الحرية المطلق، فهل صنع الإسلام شيئا لهذه الفئة في فترة الانتظار؟

نعم، لقد فتح لهم فيها نوافذ للتهوية وأعد لهم فيها وسائل للترفيه تجعلهم فى هذه الفترة يحيون حياة الإنسان، ولا يشعرون بتلك الفوراق الظالمة بين الطبقات، ذلك أنه أوجب على المخدومين أن يرتفعوا بأسلوب المعيشة لخادمهم إلى المستوى الذى يعيشون فيه هم أنفسهم.

هكذا يقول المبعوث رحمة للعالمين ﷺ فيما رواه الشيخان وغيرهما عن المعرور قال: لقيت أبا ذر بالربذة ، وعليه حلة، وعلى غلامه حله فسألته عن ذلك فقال: إنى سابيت رجلا فعيرته بأمه، فقال لى النبى ﷺ :

« يا أبا ذر! أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية. إخوانكم خولكم [2] **، جعلهم الله تحت أيديكم. فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه**

---

(١) مسلم : ٢٧ ـ الأيمان ٣٥ (ت١٦٥٩) ، وأبو داود (٥١٥٩، ٥١٦٠) ،الترمذى (١٩٤٨).

(٢) الخَول ـ بفتح المعجمة والواو ـ : هم الخدم، سموا بذلك لأنهم يتخولون الأمور. أى يصلحونها، ومنه الخولى لمن يقوم بإصلاح البستان ويقال: الخول جمع خائل، وهو الراعى ، وقيل: التخويل التمليك، تقول: خولك الله كذا، أى ملكك إياه فتح البارى : ٥: ١٧٤، وانظر المعجم الوسيط (خول).

مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم » [1] .

يقول المبعوث رحمة للعالمين فيما يرويه مسلم وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

«لا يقولن أحدكم : عبدى وأمتى . كلكم عبيد الله . وكل نسائكم إماء الله، ولكن ليقل غلامى وجاريتى، وفتاى وفتاتى» [2].

فهل من منصف يقولها معى:

أما والله! لهؤلاء فى ظل الإسلام خير من كثير من الأحرار فى كل نظام!

صورتان متقابلتان :

تلك هي - كما عرفنا - قصة الرق في الإسلام: [3] صفحة مشرقة في تاريخ البشرية. فالإسلام لم يوافق على الرق من حيث المبدأ، بدليل أنه سعى إلى تحريره بشتى الوسائل، وجفف منابعه لكى لا يتجدد. وإنما كانت هناك ضرورة لا يملك الإسلام الخلاص منها، لأنها لا تتعلق به وحده، وإنما تتعلق بدول وأقوام لا سلطان للإسلام عليهم، يسترقون الأسرى المسلمين، ويسومونهم سوء العذاب، فلا بد من معاملتهم بالمثل فى مبدأ الاسترقاق على الأقل، وإن لم يكن فى طريقة معاملة الرقيق .

وحين تأتى اللحظة المواتية التى تزول فيها تلك الضرورة فإن الإسلام يرجع إلى قاعدته العظمى التى قررها بصراحة كاملة لا مواربة فيها، وهى: الحرية للجميع والمساواة للجميع.

أما ما حدث فى بعض العهود الإسلامية من الرق فى غير أسرى الحروب الدينية، ومن نخاسة واختطاف وشراء لأناس لا يجوز استرقاقهم أصلا، فإن نسبته إلى الإسلام ليست أصدق ولا أعدل من نسبة كثيرين من المسلمين اليوم إلى الإسلام بما يرتكبونه من موبقات

---

(١) البخارى : ٢ - الإيمان (٣٠) ، مسلم : ٢٧ الأيمان ٣٨ - ٤٠ (١٦٦١) ، وأبو داود (٥١٥٧، ٥١٥٨ ، ٥١٦١)، وانظر: العمل والعمال بين الإسلام والنظم الوضعية المعاصرة: ٢٢٤ وما بعدها.

(٢) مسلم : ٤٠ - الألفاظ ١٣ (٢٢٤٩) ، وانظر: أحمد : ٢ : ٤٢٣ ، ٤٤٤ ، ٤٦٣ ، ٤٨٤ ، ٤٩١ ، ٤٩٦ ، ٥٠٨ ، البخارى : ٤٩ - العتق (٢٥٥٢) ، والأدب المفرد (٢٠٩ ، ٢١٠) ، وعون المعبود (٤٩٥٤ ، ٤٩٥٥) .

(٣) شبهات حول الإسلام: ٥٦ وما بعدها بتصرف.

وآثام وينبغى أن ننتهى من هذا الحديث إلى عدة أمور:

الأول: هو تعدد منابع الرق عند الدول الأخرى بغير ضرورة ملجئة، سوى شهوة الاستعباد، من استرقاق أمة لأمة، وجنس لجنس، واسترقاق للفقر، واسترقاق بالوراثة من الميلاد فى طبقةٍ معينة، واسترقاق بسبب العمل فى الأرض.. إلخ، وإلغاء هذه المنابع كلها فى الإسلام، فيما عدا المنبع الوحيد الذى لم يكن يملك أمره ـ كما سبق ـ وإنما كان خاضعا فيه للضرورة، وريثما تنتهى هذه الضرورة.

والثانى: أن أوربا مع تعدد موارد الرق فيها بغير ضرورة لم تلغ الرق حين ألغته متطوعة، وكتابهم يعترفون بأن الرق ألغى حين ضعف إنتاج الرقيق، لسوء أحوالهم المعيشية، وفقدان الرغبة أو القدرة على العمل، بحيث أصبحت تكاليف العبد من إعاشة وحراسة أكثر من إنتاجه ! فهى إذن حسبة اقتصادية لاغير ، يحسب فيها المكسب والخسارة ، ولاظل فيها لأى معنى من المعانى الإنسانية التى تشعر بكرامة الجنس البشرى، فتمنح الرقيق حريته من أجلها! هذا بالإضافة إلى الثورات المتتابعة التى قام بها الرقيق فاستحال معها دوام استرقاقه!

ومع ذلك فإن أوربا حينئذ لم تمنح هؤلاء الحرية، ولكنهاحولت القضية من رقيق للسيد إلى رقيق للأرض، يباع معها ويشترى، ويخدم فيها، ولايجوز له أن يغادرها، وإلا اعتبر آبقا وأعيد إليها بقوة القانون مكبلا بالسلاسل مكويا بالنار! وهذا اللون من الرق هو الذى بقى حتى حرمته «الثورة الفرنسية» في القرن الثامن عشر، أى بعد أن قرر الإسلام مبدأ التحرير بما يزيد على ألف ومائة عام!

والثالث: أنه لايجوز أن تخدعنا الأسماء! فقد ألغت «الثورة الفرنسية» الرق فى أوربا وألغى « لنكولن » الرق في أمريكا، ثم اتفق العلماء على إبطال الرق.. كل ذلك من الظاهر!.. وإلا فأين هو الرق الذى ألغى؟

وما اسم ما يحدث اليوم فى كل أنحاء العالم؟!

ما اسم الذى كانت تصنعه فرنسا فى المغرب الإسلامى؟!

وما اسم الذى تصنعه أمريكا فى الزنوج، وإنجلترا فى الملونين فى جنوب أفريقيا؟!

أليس الرق فى حقيقته هو تبعية قوم لقوم آخرين، وحرمان طائفة من البشر من الحقوق المباحة للآخرين؟ أم هو شىء غير ذلك؟ وماذا يعنى أن يكون هذا تحت عنوان الرق، أو

تحت عنوان الحرية والإخاء والمساواة؟ ماذا تعنى العناوين البراقة إذا كانت الحقائق التي وراءها أخبث ما عرفته البشرية من الحقائق فى تاريخها الطويل؟!

لقد كان الإسلام صريحا مع نفسه ومع الناس فقال: هذا رق، وسببه الوحيد هو كذا، والطريق إلى التحرر منه مفتوح، والطريق إلى إلغائه كذلك موجود، ولكن فتحه مرهون باتفاق العالم على عدم استرقاق أسرى الحرب!

أما الحضارة الزائفة التى نعيش اليوم فى أحضانها ، فلا تجد فى نفسها هذه الصراحة، فهى تصرف براعتها فى تزييف الحقائق وطلاء اللافتات البراقة! فقتل مئات الألوف فى تونس والجزائر ومراكش وغير ذلك من البلاد .. لغير شيء سوى أنهم يطالبون بالحرية والكرامة الإنسانية: حريتهم فى أن يعيشوا فى بلادهم بلا دخيل، وأن يتكلموا لغتهم ويعتقدوا عقيدتهم، ولا يخدموا إلا أنفسهم.. وحريتهم فى التعامل المباشر مع العالم فى السياسة والاقتصاد.. قتل هؤلاء الأبرياء وحبسهم في السجون القذرة بلا طعام ولاماء، وانتهاك أعراضهم والسطو على نسائهم وقتلهن بلا مبرر وشق بطونهم للتراهن على نوع الجنين! هذا اسمه فى القرن العشرين حضارة ومدنية ونشر لمبادئ الحرية والإخاء والمساواة! أما المعاملة المثالية الكريمة التى منحها الإسلام للرقيق قبل ثلاثة عشر قرنا تطوعا منه، وإكراما للجنس البشرى فى جميع حالاته، مع إعلانه العملى بأن الرق وضع مؤقت وليس حالة دائمة ـ كما أسلفنا ـ فهذا اسمه تأخر وانحطاط وهمجية!

وحين يضع الأمريكان على فنادقهم ونواديهم لافتات تقول: «للبيض فقط»! أو تقول فى وقاحة كريهة: «ممنوع دخول السود والكلاب»! وحين يفتك جماعة من البيض «المتحضرين»! بواحد من الملونين، فيطرحونه أرضا ويضربونه بأحذيتهم حتى يسلم الروح، ورجل البوليس واقف لايتحرك ولايتدخل، ولايهم لنجدة أخيه فى الوطن وفى الدين واللغة.. فضلا عن الأخوة فى البشرية.. كل ذلك لأنه ـ وهو ملون ـ تجرأ فمشى إلى جانب فتاة أمريكية بيضاء لاعرض لها ـ وبإذنها لا كرها عنها ـ يكون هذا أقصى ما وصل إليه القرن العشرون من التحضر والارتفاع!

أما حين يتهدد العبد المجوسى عمر بالقتل، ويفهم عنه عمر ذلك، ثم لا يحبسه ولا ينفيه من الأرض، ولا نقول يقتله، وهو مخلوق ناقص الآدمية حقا، لأنه يعبد النار ويصر على عبادتها تعصبا منه للباطل بعد أن رأى الحق بعينيه، فما أشد موقف عمر، وما أشد ازدراءه لكرامة الجنس البشرى لأنه قال: «تهددنى العبد» ثم تركه حراً، حتى ارتكب جريمته فقتل

خليفة المسلمين، لأنه لم يكن يملك عليه سلطانا قبل أن يقترف الجريمة!

وقصة الملونين في أفريقيا، وحرمانهم من حقوقهم البشرية وقتلهم أو «اصطيادهم» حسب تعبير الصحافة الإنجليزية، لأنهم تجرؤوا فأحسوا بكرامتهم، وطالبوا بحريتهم!

هذا هو العدل البريطانى فى قمته، وتلك هى الحضارة الإنسانية فى أوجها! والمبادئ السامية التي تجيز لأوربا الوصاية على العالم!

أما الإسلام فهو يسترق أسرى الحرب معاملة بالمثل، لا إقراراً لمبدأ الرق! وهو متأخر جدا لأنه لم يتعلم «اصطياد» البشر والتلهى بقتلهم، لأنهم سود البشرة! وهو يقول فيما رواه البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ قال:

«اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى كأنه رأسه زبيبة» (١).

ويقول فيما رواه مسلم عن أبى ذر رضى الله عنه قال:

«إن خليلى أوصانى أن أسمع وأطيع وإن كان عبدا مُجدَّع الأطراف»(٢).

وفى رواية له عن يحيى بن حصين قال: سمعت جدتى تحدث أنها سمعت النبى ﷺ يخطب في حجة الوداع. وهو يقول:

«ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله، فاسمعوا له وأطيعوا».

وفى رواية أخرى عنه عن جدته أم الحصين. قال: سمعتها تقول: حججت مع رسول الله ﷺ حجة الوداع. قالت: فقال رسول الله ﷺ قولا كثيرا، ثم سمعته يقول:

«إن أُمِّرَ عليكم عبد مجدَّعٌ (حسبتها قالت) أسودُ، يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له وأطيعوا» (٣).

أما المرأة فلها حساب آخره، لأن أسيرات الحرب فى البلاد الأخرى ينحدرن إلى حمأة الرذيلة، بحكم أنه لاعائل لهن، ولأن سادتهن لا يشعرن نحوهن بحمية العرض، فيشغلوهن فى هذه المهمة البغيضة، ويكسبون من هذه التجارة القذرة ـ تجارة الأعراض ـ والرجل الأوربى لا يريد أن يعول أحدا: لا زوجة ولا أولاداً!

---

(١) البخارى: ٩٣ ـ الأحكام(٧١٤٢)، وانظر أحمد: ٣: ١١٤، ١٧١، وابن ماجه (٢٨٦٠).

(٢) مسلم: ٣٣ ـ الإمارة ٣٦ (١٨٣٧).

(٣) مسلم: ٣٣ ـ الإمارة ٣٧ (١٨٣٨)، وانظر: الترمذى(١٧٠٦)، والنسائى: ٧: ١٥٤.

يريد أن يستمتع دون أن يتحمل تبعة! يريد جسد امرأة ولا يعنيه من تكون هذه المرأة! ولا يعنيه مشاعرها نحوه ولا مشاعره نحوها! فهو جسد ينزو كالبهيمة، وهي جسد يتلقى بلا اختيار! ويتلقاها لا من واحد بعينه، ولكن من أي عابر سبيل!

هذه هي «الضرورة» الاجتماعية التي تبيح استرقاق النساء في الغرب في العصر المتحضر! وما هي بضرورة لو ارتفع الرجل الأوربي إلى مستوى «الإنسانية» ولم يجعل لأنانيته كل هذا السلطان!

ومن ثم سمعنا عن الأمراض الجنسية الخطيرة التي تنشأ من تلك الدعارة!

تلك هي صورة الرق عند غير المسلمين حتى القرن العشرين.. رق الرجال والنساء والأمم والأجناس.. المتعدد المنابع المتجدد الموارد الهابط إلى أسفل سافلين!

ومن قبل عرفنا وسائل مكافحة الرق.. وعرفنا قصة الرق في الإسلام، وإنها صفحة مشرقة في تاريخ البشرية.. وهذا هو موقف الإسلام من الرق: [١].

١ ـ منع لإنشائه وابتدائه.

٢ ـ عمل بكل الوسائل على تصفية الموجود منه وإنهائه.

٣ ـ عطف سابغ عليه في أثناء محنته وبليته.

---

(١) دراسات إسلامية: ٤٢.

الفصل الثالث

دور اليهود في انحطاط الأخلاق

الثالوث اليهودى ـ ماركس والاقتصاد ـ فرويد وعلم النفس ـ دركايم وعلم الاجتماع ـ التطور والعداء للدين والأخلاق ـ المرأة والجنس ـ شهادة التاريخ ـ فى اليونان ـ فى الرومان ـ فى أوربا المسيحية ـ فى أوربا الجديدة ـ عوامل شيطانية ثلاثة ـ شهادة من كاتب غربى ـ جاهلية القرن العشرين ـ شباب العالم فى طريق الضياع ـ مهنة الدعارة.

الثالوث اليهودى :

وهنا أرى من الحق أن أنقل صورة مجملة عن دور اليهود الثلاثة: «ماركس وفرويد ودركايم» وفق ما يقتضيه المقام من كلام الأستاذ محمد قطب، رجاء أن ندرك دور اليهود فى انحطاط الأخلاق، ورجاء ألا تبقى هناك حجة لقائل يقول: إن الحكم الذى صدر ونفذ فى اليهود ـ رغم ما سبق ـ لا يتمشى مع روح العصر الحاضر [١]، وموقف أهله من التعاطف مع اليهود:

لقد اتخذ اليهود الثلاثة نواحى مختلفة من الفكر! فكتب « ماركس» فى الاقتصاد! و«فرويد» فى علم النفس! و«دركايم» فى علم الاجتماع ! ولكنهم فى النهاية يلتقون فى عدة أمور.

لقد أخذوا كلهم بادئ ذى بدء، من النظرية الداروينية فكرة حيوانية الإنسان وماديته، فمدوها ووسعوا نطاقها وعمموا إيحاءاتها المسمومة فى كل اتجاه!

ولسنا بصدد مناقشة هذه النظرية، فهى هابطة ساقطة، وحسبنا أن ندرك أنها ذات إيحاء قوى بحيوانية الإنسان!

يقول جوليان هكسلى فى كتابه «الإنسان فى العالم الحديث» [٢] ـ وهو من علماء الداروينية الحديثة: «وبعد نظرية دارون لم يعد الإنسان يستطيع تجنب اعتبار نفسه حيوانا»!

وهذا الإيحاء هو الذى مده اليهود الثلاثة ووسعوه على أوسع نطاق!

وهنا يخطر ـ من أجل الحقيقة التاريخية ـ سؤال: هل كان فى الإمكان حبس نظرية دارون فى المعمل الذى نشأت فيه، وحجزها عن التأثير فى المجتمع الغربى والفكر البشري كله؟

ربما كان هذا مستحيلا فى نظرية من هذا النوع، وفى ظروف كالتى ولدت فيها تلك النظرية الخطيرة!

ومع ذلك فلم يكن حتما أن تتجه هذا الاتجاه في التأثير، لو تلقفتها أيد أخرى!

إن الفكر الغربى الذى كان يعيش فى ظل فكرة الثبات المطلق، قد فوجئ مفاجأة

---

(١) التطور والثبات: ٣٧ وما بعدها بتصرف.

(٢) ترجمة حسن خطاب ومراجعة عبد الحليم منتصر.

عنيفة بفكرة التطور، فأفقدته الهزة صوابه، وصار عرضة للانحراف.. ولكن لم يكن حتما أن ينحرف.. كان يمكن أن يرتد إلى الصواب حين يجد الهداة الذين يردونه إلى الصواب.

ولقد عرف المسلمون التطور معرفة وثيقة، وصاحبوه مصاحبة عميقة فى تاريخهم الحى كله، فلم ينحرفوا به عن سواء السبيل..

يقول «دريبر» الأمريكى في كتابه: «النزاع بين العلم والدين» :

« وإننا لندهش حين نرى فى مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنا نظنه من نتائج هذا العصر . ومن ذلك أن مذهب النشوء والارتقاء للكائنات العضوية الذى يعتبر مذهباحديثا، كان يدرس في مدارسهم. وقد كانوا ذهبوا منه إلى مدى أبعد مما وصلنا إليه، وذلك بتطبيقه على الجامدات والمعادن أيضا» (١).

وينبغى الاحتراس هنا من مثل هذا القول، وإن كان يقال فى معرض إنصاف الإسلام والفكر الإسلامى. فالذى اهتدى إليه المسلمون فى تفكيرهم شىء آخر غير مذهب النشوء والارتقاء، كما قرره دارون وولاس. لقد لاحظوا التدرج فى مراتب المخلوقات من الجوامد إلى الإنسان. ولكنهم لم يقولوا ـ كما قال دارون ـ إن الإنسان من أصل حيوانى، ولم يبخسوه قدره، ولا نفوا عنه مزاياه التى تفرد بهاوردوا تميزه ـ ابتداء ـ إلى إرادة الحق الصريحة من خلقه هكذا متميزاً متفردا ، ليصبح خليفة فى الأرض. ومن ثم عرفوا فكرة التطور، ولكنها لم تتحول فى تفكيرهم إلى لوثة مدمرة كما حدث في الفكر الغربى!

وظلوا مع ذلك مؤمنين بإنسانية الإنسان ، ومؤمنين بالأخلاق .. ذلك أنهم يؤمنون بالله..

ويتجلى الثبات في المصادرالأصلية النصية للتشريع، (٢) من كتاب الله تبارك وتعالى، وسنة رسول الله ﷺ وتتجلى المرونة في المصادر الاجتهادية التى اختلف فقهاء الأمة فى مدى الاحتجاج بها ما بين موسع ومضيق، ومقل ومكثر، مثل الإجماع، والقياس، والاستحسان، والمصالح المرسلة، وأقوال الصحابة وغير ذلك .

---

(١) الإسلام دين عام خالد : ٢٣٣.

(٢) الخصائص العامة للإسلام: ٢٠٧ وما بعدها بتصرف.

من مآخذ الاجتهاد وطرائق الاستنباط .يقول ابن القيم: الأحكام نوعان: [1].

نوع لا يتغير عن حالة واحدة هو عليها. لا بحسب الأزمنه ولا الأمكنه، ولا اجتهاد الأئمة، كوجوب الواجبات، وتحريم المحرمات والحدود المقدرة بالشرع على الجرائم، ونحو ذلك ، فهذا لا يتطرق إليه تغيير ولا اجتهاد يخالف ما وضع عليه.

والنوع الثانى: مايتغير بحسب اقتضاء المصلحة له، زمانا، ومكانا ، وحالا كمقادير التعزيرات وأجناسها، وصفاتها، فإن الشارع ينوع فيها بحسب المصلحة.

وضرب لذلك عدة أمثلة من سنة النبى ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده.. ثم قال :

وهذا باب واسع، اشتبه فيه على كثير من الناس الأحكام الثابته اللازمة التى لا تتغير بالتعزيرات التابعة للمصالح وجودا وعدماً [2].

أما اليهود الثلاثة فلم يأخذوا على عاتقهم رد أوربا إلى صوابها بعد هزة التطور، وإنما أخذوا على عاتقهم أن ينفخوا فى انحرافاتها بقوة وعنف[3] وإصرار وتمكن، حتى تزيد الهوة اتساعا وتشتد سرعة الانزلاق!

كانت نظرية «دارون» قد أعطت إيحاء بين متصاحبين:

الإيحاء بالتطور الدائم الذى يلغى فكرة الثبات!

والإيحاء بحيوانية الإنسان وماديته بإرجاعه إلى الأصل الحيواني من ناحية، وحصر القوى التى تؤثر فيه من ناحية أخرى بالقوى المادية الممثلة فى « البيئة » أو على الأكثر فى«الطبيعة» وإغفال الجانب الروحى إغفالا تاما، وإغفال تدخل الحق فى عملية الخلق أو عملية التطور سواء! يقول دارون: «إن تفسير النشوء والإرتقاء بتدخل الله، هو بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة فى وضع ميكانيكى بحت!

ومن هذين الإيحاءين ـ أحدهما أو كليهما ومتصلين أو منفصلين ـ أخذ اليهود الثلاثة!

---

(١) إغاثة اللهفان : ١ : ٣٣٠ وما بعدها بتصرف .

(٢) انظر: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته: ٨٤ ومابعدها ، ومنهج الفن الإسلامى :٤٨ وما بعدها، ومعركة التقاليد: ٨٤ وما بعدها ، والعمل والعمال بين الإسلام والنظم الوضعية المعاصرة :١٠ وما بعدها، والفكر الإسلامى وصلته بالاستعمار الغربى : ٣١١ وما بعدها، والثقافة الإسلامية: ٧٤ وما بعدها .

(٣) التطور والثبات: ٣٩ وما بعدها بتصرف.

ماركس والاقتصاد:

فأما ماركس فقد كان ميدان بحثه علم الاقتصاد، ولكنه لم يقصر بحثه على دراسات أكاديمية في علم الاقتصاد، وإنما وضع مذهبا كاملا، يتناول تصورا كاملا للحياة من زاوية معينة، يتمثل فيها الإيحاءان الداروينيان متصلين متصاحبين!

فهو قد وطد أركان التفسير المادي للتاريخ، وهو تفسير يجعل للقوى المادية السلطان الأكبر على نشاط الإنسان كله كما يجعل هذا النشاط ماديا بصفة أساسية، ومنبعثا عن الكيان الحيوانى للإنسان!

القوى المادية ـ والاقتصادية ـ هى العنصر الفعال في تاريخ البشرية:

« فى الإنتاج الاجتماعى الذى يزاوله الناس تراهم يقيمون علاقات محدودة لاغنى لهم عنها، وهى مستقلة عن إرادتهم.. فأسلوب الإنتاج في الحياة المادية هو الذى يحدد صورة العمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية فى الحياة، ليس شعور الناس هو الذى يعين وجودهم، بل إن وجودهم هو الذى يعين مشاعرهم » (كارل ماركس) .

« تبدأ النظرية المادية من المبدأ الآتى: وهو أن الإنتاج وما يصاحبه من تبادل المنتجات هوالأساس الذي يقوم عليه كل نظام اجتماعى. فحسب هذه النظرية نجد أن الأسباب النهائية لكافة التغيرات أو التحولات الأساسية لا يجوز البحث عنها فى عقول الناس، أو فى سعيهم وراء الحق والعدل الأزليين ، وإنما فى التغييرات التى تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل» (فردريك انجلر).

كلام صريح لا يدارى هدفه الصريح!

فأسلوب الإنتاج فى الحياة المادية، وأسلوب الإنتاج والتبادل ـ وليس الحق و العدل الأزليان ـ هو الذى يحدد صورة العمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية فى الحياة، وإليه ترجع الأسباب النهائية لكافة التغيرات أو التحولات الأساسية!

وتاريخ البشرية كله هو هذا التاريخ المادى !. اختراع آلة جديدة أو تغير أساليب الإنتاج هو الذى يصنع التاريخ. و« الأطوار » التى مرت فيها البشرية من أول الشيوعية الأولى ، إلى الرق إلى الإقطاع ، إلى الرأسمالية ، إلى الشيوعية الثانية و(الأخيرة) ترجع كلها إلى اختراع الآلات وتغير أساليب الإنتاج!

والعمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية ليست قيما قائمة بذاتها، أصيلة فى الكيان البشرى!

إنما هى انعكاس لأسلوب الإنتاج في الحياة المادية! أى نتيجة للكيان المادى.. فى الحياة والإنسان!

والحق والعدل الأزليان ليسا قيمة حقيقية من قيم الإنسانية!

إنما القيمة الحقيقية هى التغييرات التى تطرأ علي أسلوب الإنتاج والتبادل .. وحين نرسم دستورا للحياة البشرية، فهو محصور فى نطاق «المطالب الرئسية للإنسان» المأكل والمسكن والإشباع الجنسى (المنيفستو أو الإعلان الشيوعى).

أما الدين والأخلاق والتقاليد فهى السخرية العظمى فى نظر ماركس!

الرسالات السماعية بادئ ذى بدء وهم من أكبر أوهام البشرية! «فحقيقة العالم تنحصر فى ما يته»! (كارل ماركس)

وفى ظل التفسير المادى للتاريخ لا يوجد الله. ولا الوحى . ولا الرسالات !

والدين ثانيا ـ أفيون الشعوب ـ شيء ابتدعه الإقطاعيون لتخدير العبيد والطبقة الكادحة عن المطالبة بحقوقهم المسلوبة، وإغرائهم بالصبر على سوء أحوالهم والرضى بها طمعا فى الجنة الآخرة، مما ييسر لهؤلاء الإقطاعيين أن يستمتعوا بالثروات المغتصبة وهم آمنون!

والقيم ثالثا ـ ومن بينها القيم الخلقية ـ إنما هى مجرد انعكاس للوضع الاقتصادى، ومن ثم ليس لها وجود أصيل في الحياة البشرية، فضلا عن كونها غير ثابتة. فهي متطورة بحسب التطور الاقتصادى الذى تمر به البشرية ولما كانت الأطوار الاقتصادية للبشرية حتمية ومتعاقبة فالقيم الخلقية تأخذ أوضاعا محددة ومتطورة.. وهى حتمية التطور مع تطور أوضاع البشرية!

وإلى هنا يتضح المقصود من النظرية فى أوضح صورة وأصرحها:

أولا: لادين!

فالدين أسطورة ابتدعها أصحاب المصالح هنا في الأرض، ولا علاقة له بالسماء، ولا رصيد له من الحقيقة!

وثانيا : لا قيم ولا أخلاق!

فالقيم ليس لها وجود ذاتى إنما هى انعكاس للأوضاع الاقتصادية. وليس لها ثبات، لأن مصدرها ــ وهو الأوضاع الاقتصادية ــ دائم التغيير. ثم هى حتمية التطور، فلا يمكن الإمساك بها على وضع معين، مهما حاول المحاولون من المفكرين أو من دعاة الدين!

ولم يقل «دارون» كل ذلك ولا شيئا من ذلك!

ولا كان همه أن يقول!

ولكن هذا اليهودى الذى أخذ إيحاء نظريته المسموم، قد مده مدة واسعة فشملت الحياة كلها، تحت ستار البحث «العلمى» فى علم الاقتصاد!

وانتشر هذا الإيحاء المسموم ــ على يد «ماركس» ــ فدخل كل الحياة الغربية على الاتساع!

حقيقة إن روسيا وحدها فى مبدأ الأمر ــ هى التى اعتنقت المذهب الشيوعى كاملا، وأعطته قوة التطبيق.. وروسيا وحدها ــ فى مبدأ الأمر ــ هى التى قاومت الدين مقاومة «رسمية» على نطاق واسع. واضطهدته كل أنواع الاضطهاد،

من أول القتل والاعتقال والمصادرة والنفى، إلى تدريس الإلحاد رسميا فى المدارس والجامعات!

ولكن الغرب كله ــ الذى لم يصبح شيوعيا من حيث المذهب ــ قد أخذ مع ذلك بالتفسير المادى للتاريخ!

أخذ به فى إعطاء الجانب الاقتصادى الاهتمام الأكبر، والميل إلى تفسير الحياة الإنسانية كلها من خلال التفسير الاقتصادى والمادى، وإغفال «القيم» وأثرها فى الحياة، وفى توجيه سلوك الناس!

وأخذ به في اعتبار القيم الأخلاقية «متطورة» لاثبات لها، ولاسبيل إلى ثباتها.. ومتطورة على أساس التطور الاقتصادى بصفة خاصة!

وأخذ به فى اعتبار الدين آخر ما يمكن أن يؤثر فى الحياة!

وصارت الحياه الغربية فى ظل النظام الرأسمالى ــ المضاد للنظام الشيوعى ــ لا تفترق كثيرا فى الأساس الفكرى والحضارى «والإنسانى» عن مثيلتها فى العالم الشيوعى!

صحيح أن الدين فى الغرب لم يصادر..

وصحيح أن الأفراد هناك «متدينون» بمعنى الذهاب للكنيسة يوم الأحد، ورسم علامة الصليب في الصلاة، والإيمان بأن هناك ربا خلق الحياة والإنسان، ويقدر على كثير من الأمور!

ولكن هذا «الدين» لا يكيف شيئا فى حياة الناس الواقعية ولا مشاعرهم.. فالتنظيم الاقتصادى والاجتماعى والسياسى والفكرى قائم على أساس أن الحياة المادية هى الأصل، وهى الحقيقة بالعناية. وهى المسعى الذى يستغرق نشاط الإنسان. وهى «حقيقة» الحياة!

ثم إنه لا وجود ـ في واقع المجتمع ـ للأخلاق المستمدة من مفهوم الدين! فالنشاط الجنسي «الحر» للأولاد والبنات والرجال والنساء لا صلة له البتة بمفهوم الدين!

والصراع المتكالب على الحياة لا صلة له البتة بمفهوم الدين!

والمتاع الجنسى الزائد عن الحد لاصلة له البتة بالمفهوم المسيحى على وجه الخصوص!

والإيمان السارى عند الجماهير كلها فى الغرب ـ أوربا وأمريكا سواء ـ هو أن مقاييس الأخلاق قد تغيرت، وأن «تطورها» كان حتميا في ظل المجتمع الصناعى، وأنه لا مجال مطلقا للمقاييس القديمة للأخلاق(التى كانت مستمدة من الدين) لأن المرأة قد تحررت (اقتصاديا)، ولأن النظرة « الزراعية» للعفة لم يعد لها مجال!

أى .. أنه التفسير المادى للتاريخ، هو الذى يحكم الحياة في الغرب! ويحكمها فى ذات النقطة أو النقطتين اللتين أراد « ماركس » تحطيمهما ـ تحت ستار البحث العلمى فى علم الاقتصاد ـ وهما الدين والأخلاق!

ومعناه مرة أخرى أن الإيحاء المسموم للداروينية قد وصل على يد هذا اليهودى الأكبر إلى مناطق من الحياة البشرية لم يكن حتماأن يصل إليها، فحطم به فى واقع الحياة الدين والأخلاق، والتقاليد فى صورة علمية منظمة، لا تقوم على مذهب شخصى(في ظاهر الأمر)، وإنما تقوم ـ كما يقال على أساس البحث «العلمى» والدراسة والتحقيق!

ومن ثم يجد فيها المنحرفون الضالون سندا يسند ضلالهم وانحرافهم، ولا يحوجهم إلى الإعتذار عن إهمال الدين وتحطيم الأخلاق والتقاليد، بل يجعلهم يسعون إليه سعيا؟

فرويد وعلم النفس:

أما فرويد فلم يأخذ من داروين جانب التطور، وإنما أخذ عنه حيوانية الإنسان!

إنه ككل باحث نفسي ـ يرسم صورة ثابتة لكيان الإنسان، وإن كان فى كتابه To-tem & taboo وربما كان هذ الكتاب وحده ـ يأخذ جانب التطور أيضا، وهو يتحدث ـ إلى جانب سيكلوجية الفرد ـ عن سيكلوجية الجماعات، وعن تطور الدين، وتطور المحرمات.. ولكنه يرسم هذه الصورة من جانب «الحيوان» لا من جانب «الإنسان»!

ولئن كان ماركس قد تحدث عن الدين والأخلاق، وسخافتهما وبعدهما عن أن يكونا قيما أصيلة، فى ظل البحث «العلمى» فى الاقتصاد فإن فرويد قد تحدث عن الموضوع ذاته والاتجاه ذاته في ظل البحث «العلمى فى علم النفس » !

إن ميدان بحثه هو النفس الإنسانية .. هو المشاعر والانفعالات .. هو العالم الداخلى فى مواجهة العالم الخارجى الذى تحدث عنه ماركس.. النفس فى نظره هى الميدان الأصيل للحياه، عن تركيبها الذاتى تنبثق الأفعال والأفكاروالمشاعر، وتتحول إلى وقائع عملية فى واقع الحياة.. أى أنه ـ من جهة البحث ـ يأخذ بالضبط الجانب المقابل لماركس ، ومع ذلك ـ ومن عجب ـ يصل معه إلى النتيجة ذاتها في موضوع الدين والأخلاق، ويتخذ فى بحثه نفس التفسير الحيوانى للحياة الإنسانية وللإنسان!

مصادفة!

ولكن الحق أن الصورة التى يرسمها فرويد للنفس الإنسانية ـ وإن التقت مع ماركس في النهاية عند نقطة تسخيف الدين والأخلاق، واعتبارهما قيما غير أصيلة في الحياة البشرية، وإنما انعكاسا لشىء آخر مادى في أصله وحيوانى ـ فإن فرويد كان أفحش وأخطر فى تلويثه لتلك النفس، والانحطاط بها إلى الحضيض!

إن الحياة النفسية للإنسانية ليست حيوانية فحسب، ولكنها كلها تنبع من جانب واحد من جوانب الحيوان، وهو الجنس المسيطر على كل أفعال الإنسان!

إن حياة الإنسان بادئ ذى بدء حياة حيوانية بحته «فغرائزه» هي التي تحكمه. هي التى تسيطر على كل نشاطه. والجانب المسمى «الروح» لا وجود له على الإطلاق (وإلى هنا يلتقى مع ماركس التقاءً كاملا فى تصور النفس الإنسانية)!

أما الجانب الذى اسمه «العقل» فهو موجود بكل تأكيد. وهو «طبقة» من طبقات النفس . وهو الوعى. وهو الضابط لتصرفات الإنسان وهو الذى يواجه الحياة الواقعية، ويقر موقف الإنسان إزاءها. ولكن أى نتيجة ياترى لوجود العقل ـ أو الذات الواعية فى كيان الإنسان؟!

النتيجة: أن موقع الذات بين الطاقة الشهوانية (التى هى الحقيقة الباطنية للنفس فى نظر فرويد) وبين الحقيقة الخارجية ، كثيرا ما يغريها بأن تكون منافقة مخادعة نهازة للغرض ، كالسياسى الذى يرى الحقائق ، ولكنه يحب أن يحافظ على مكانته بين الجماهير» . (١)

ومن ثم «فالقيم» في كلمة واحدة هى خرافة « وضحك على الذقون »! عملة زائفة يتبادلها الناس، وهم فى حقيقتهم عالمون بأنها خداع!

(وهنا يلتقى ـ من بعيد ـ بفكرة ماركس عن القيم، وإن كانت الأسانيد مختلفة في الحالين)!

ولكن فرويد بعد ذلك «يتخصص» فيأتي بالأعاجيب:

إن حقيقة الإنسان الباطنية العميقة ليست هى الطاقة الشهوانية فجسب، وإنما هى على وجه التحديد الطاقة الجنسية. الجنسية بالذات دون أى طاقة أخرى من طاقات الإنسان أو (الحيوان)!

وليس هنا مجال مناقشة فرويد(٢) ولكنا نلحظ فقط شيئا بارزا فى نظريته النفسية.. فقد كان الجنس ـ فى أوربا المسيحية المتزمتة (رغم بدء الانحلال الخلقى فيها) ـ طاقة مستقذرة ، ينفر الناس من الحديث عنها وكشفها للنور . فيجيء فرويد . فيصر إصراراً محموما على أن يفسر النفس كلها، بجميع ألوان نشاطها، من خلال هذه الطاقة المستقذرة بالذات! ويصر ـ أكثر من ذلك (وهذا هو المهم) ـ على أن يفسر الدين والأخلاق بصفة عامة بأنها انبثاق جنسي.. وجنسى على وجه التحديد!

مصادفة!

الحياة كلها جنس، ومنبثقة من خلال الجنس!

---

(١) انظر: المرجع السابق: ٤٧ هامش.

(٢) انظر: الإنسان بين المادية والإسلام : ١٩ وما بعدها.

والجنس يبدأ مبكرا جدا.. لا فى مرحلة البلوغ أو المراهقة كما يحسب الجهلاء من الناس.. وإنما من لحظة الميلاد، بل يولد الإنسان جنسا خالصا مركزا فى إهاب طفل حيوانى صغير!

كل أعمال الطفل تعبير عن طاقة الجنس!

الرضاعة جنس!

ومص الإبهام جنس!

وتحريك العضلات جنس!

والتبول والتبرز جنس!

والالتصاق بالأم جنس!

وهذا الأخير بصفة خاصة هو الذى يشكل الحياة النفسية للبشرية كلها أفرادا وجماعات!

فالطفل يعشق أمه بدافع الجنس. ثم يجد الأب حائلا بينها وبينه فيكبت هذا العشق. فتنشأ فى نفسه عقدة أوديب!

والطفلة تعشق أباها بدافع الجنس كذلك ثم تكبت العشق فتنشأ فى نفسها عقدة إليكترا!.

ومن هذه العقدة اللعينة ينشأ الضمير والدين والأخلاق والتقاليد، وكل «القيم العليا» فى حياة البشرية!

والأمر كله مستمد من تلك الحادثة التى «رآها!» فرويد اليهودى في منشأ تاريخ البشرية!

ذلك أن الأبناء ــ في مطلع البشرية ــ اتجهوا نحو أمهم بدافع الجنس، ثم وجدوا أباهم عائقا فى الطريق فقتلوه، ثم أحسوا بالندم على قتل أبيهم فأقسموا ليقدسن ذكراه، فعبدوه، ومن ذلك نشأت عبادة الأب، ثم تحولت إلى عبادة الطوطم، لأنه في النفس البشرية هكذا يرتبط الأب برمز الحيوان! (لماذا؟!)

وفى الوقت ذاته وجد الأبناء أنهم سيتقاتلون بينهم للحصول على الأم. وهذا أمر لا يجوز! (لماذا ؟!)

فقرروا تحريمها على أنفسهم، فنشأ بذلك أول تحريم (جنسى) وانصب على الأم. كما قرروا التعاون فيما بينهم بدل الخصام والعراك (لماذا ؟!)

فنشأت «القيم»!

وهذه القصة التى «رآها» فرويد تحدث في البشرية الأولى، ليست حادثة تاريخية مفردة، فقد تركت طابعها في الحياة البشرية كلها منذ ذلك الحين. فكل طفل يعشق أمه بدافع الجنس. وكل طفل يكبت ذلك العشق، ثم ينموا الدين والأخلاق والتقاليد.. والقيم العليا والحضارة، من ذلك الكبت الجنسى لعشق الأم!

ومع ذلك فالكبت لم ينته، وإنما هو يتحول إلى قلق نفسى دائم لا يترك الناس فى راحة!

وكل الديانات التى جاءت بعد ذلك هى محاولات لحل المشكلة ذاتها (إحساس الأبناء بالجريمة) وهى تختلف بحسب مستوى الحضارة التى ظهرت فيها، والوسائل التي تطبقها، ولكنها جميعا تهدف إلى شىء واحد.. رد فعل لنفس الحدث العظيم (قتل الأب) الذى نشأت عنه الحضارة، والذى لم يدع للإنسانية منذ حدوثه لحظة واحدة للراحة! (فرويد) (١).

واضح أن هذا التفسير للإنسان تفسير حيوانى بحت!

فالقصة كلها التى «رآها!» فرويد مستمدة من ملاحظات دارون فى عالم الحيوان. فقد لاحظ أنه فى عالم البقر تتجه الثيران الفتية للحصول على البقرة الأم، فتجد أباها عائقا فى الطريق، فتتجه كلها نحوه لقتله. فإذا فرغت من ذلك عادت فاصطرعت فيما بينها حتى يتغلب أحدها ـ وهو أقواها ـ فيفوز وحده بالأم، ويصبح هو السيد الجديد!

وواضح كذلك مدى تلويث فكرة الدين والأخلاق والتقاليد، وتقذيرها فى نفوس الناس، بغمسها في مستنقع الجنس المستقذر فى أوربا المسيحية، وإخراجها منه يتقاطر منها نقيع الجنس المكبوت!

جاء فى كتاب بروتوكولات حكماء صهيون:

---

(١) انظر المرجع السابق : ٤٩ .

يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا! إن فرويد منا، وسيظل يعرض العلاقات الجنسية فى ضوء الشمس، لكى لا يبقى فى نظر الشباب شيء مقدس، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية، وعند ئذ تنهار أخلاقه! إن هناك هدفا مزدوجا يتم فى نفس الوقت : فالجنس ينظف ليستباح! لتنطلق الغرائز «المكبوتة»! لينطلق الشباب كالبهائم، دون أن يحسوا فى ضميرهم لذعا، ولا في نفوسهم ندامة، ولكن فى الوقت ذاته يقذر الدين والأخلاق والتقاليد بتصويرها نابعة فى الأصل من الجنس المستقذر حينئذ في النفوس!

أى أنه عملية إبدال دقيقة خبيثة بشعة.. فينزل الدين والأخلاق إلى مكان الجنس المستقذر، ويرتفع الجنس إلى مكان الدين والأخلاق فى النظافة والتقديس! وليس هنا ـ كما أسلفت ـ مجال المناقشة مع فرويد.. إنما نثبت هنا فقط مجموعة من الحقائق حول هذا التفسير الجنسى للسلوك البشرى:

أولا: أنه استمد من إيحاءات نظرية دارون ذلك التفسير الحيوانى للإنسان.. ولم يقل دارون بطبيعة الحال شيئاً من ذلك، ولا كان همه أن يقول، ولكن هذا اليهودى الذى أخذ إيحاء نظريته المسموم، قد مده مدة واسعة فشملت الحياة كلها، تحت ستار البحث «العلمى» في علم النفس!

ثانيا: أنه وجه الإيحاء المسموم كله الذى استمده من دارون إلي نقطتين مركزتين، فى أثناء هذه الجولة الواسعة من باطن النفس، وفي التاريخ، هما الدين والأخلاق. فسعى إلى تلويثهما بصورة لم يسبق لها مثيل في التاريخ كله! ووضعها فى صورة منفرة مقززة ينفر منها كل إنسان!ولم يكتف في ذلك بالتلميح، بل كان صريحا جدا وهو يقول:

«إن التسامى» نوع من الشذوذ!

وإن الأخلاق تتسم بطابع القسوة حتى في درجتها الطبيعية العادية!

وإن أساطير المسيحية تصور فى حقيقتها رغبة الابن (المسيح) فى قتل والده (الرب الإله) وإن كان قد كبت هذه الرغبة فقتل نفسه بدلا من أبيه، ولكنه أصبح إلها مكان أبيه!

وإن الحضارة تتعارض مع النمو الحر للطاقة الجنسية !

وإن الدين والأخلاق والحضارة تنشأ من الكبت الجنسى، والكبت الجنسى خطر

على الكيان النفسى والعصبى، لأنه يصيب النفس بالعقد والاضطرابات ! [١] (كل كتب فرويد بلا استثناء !) .

دركايم وعلم الاجتماع :

ومن أراد المزيد فليرجع إلى كتابه « اليهودية فى ضوء التحليل النفسى : موسى والتوحيد » [٢]

أما دركايم فله قصة ثالثة ..

إنه ـ مرة أخرى ـ يقف من فرويد موقف التقابل الكامل .

إنه لايعترف أن الكيان النفسى للفرد هو أساس الحياة الاجتماعية. بل العكس فى نظره أقرب إلي الصواب. إن الحياة الاجتماعية هى التى تشكل مشاعر الفرد . وعليه فلا يجوز أن نفسر الحياة من نفسية الفرد كما يصنع علم النفس كله، وإنما ينبغى أن نفرق بين الظاهرة النفسية والظاهرة الاجتماعية تفريقا كاملا، حتى وإن قام بينهما ـ أحيانا ـ نوع من الاتصال:

« ولكن الحالات النفسية التى تمر بشعور الجماعة تختلف فى طبيعتها عن الحالات التى تمر بشعور الفرد، وهى تصورات من جنس آخر، وتختلف عقلية الجماعات عن عقلية الأفراد، ولها قوانينها الخاصة بها » [٣] .

« .. إن ضروب السلوك والتفكير الاجتماعيين أشياء حقيقية توجد خارج ضمائر الأفراد، الذين يجبرون على الخضوع لها فى كل لحظه من لحظات حياتهم ». [٤]

« ولكن لما كان هذا العمل المشترك ـ الذى تنشأ عنه الظواهر الاجتماعية ـ يتم خارج شعور كل فرد منا، وذلك لأنه نتيجة لعدد كبير من الضمائر الفردية ، فإنه يؤدى بالضرورة إلى تثبيت وتقرير بعض الضروب الخاصة من السلوك والتفكير ، وهى تلك الضروب التى توجد خارجة عنا، والتى لاتخضع لإرادة أى فرد منا » [٥] .

« ولكن ليس من الممكن تطبيق هذه الطريقة ـ التى تفسر الظواهر الاجتماعية من

---

(١) انظر : المرجع السابق : ٥١ .

(٢) ترجمة عبد المنعم الحفنى، مراجعة محمد الدمياطى . ط الدار المصرية . القاهرة .

(٣) قواعد المنهج فى علم الاجتماع تأليف إميل دركايم ، ترجمة الدكتور محمود قاسم ومراجعة الدكتور محمد بدوى ـ مقدمة الطبعة الثانية : ١٥ .

(٤) المرجع السابق : ٢٢ .   (٥) المرجع السابق : ٢٥ .

داخل نفوس الأفراد ـ على الظواهر الاجتماعية ، اللهم إلا إذا أردنا تشويه طبيعتها ! ويكفى فى البرهنة على ذلك أن نعود إلى التعريف الذى سبق أن حددنا به الظواهر الاجتماعية. فلما كانت الخاصة الجوهرية التى تمتاز بها هذه الظواهر تنحصر فى القيام بضغط خارجي على ضمائر الأفراد، كان ذلك دليلا على أنها ليست وليدة هذه الضمائر » (١) .

« وبهذا المعنى ، ولهذه الأسباب، يمكننا بل يجب علينا أن نتحدث عن شعور اجتماعي يختلف عن شعور الأفراد. وإذا أردنا تبرير هذه التفرقة بين الشعور الاجتماعى والشعور الفردى، فلسنا فى حاجة إلى تجسيد الشعور الاجتماعي ، فإن لهذا الشعور وجودا من جنس خاص. ومن الواجب أن نعبر عنه بمصطلح خاص، لمجرد السبب الآتى، وهو : أن الحالات التى تدخل فى تركيبه تختلف عن الحالات النفسية التى يتركب منها شعور الفرد اختلافا نوعيا .. ومن جهة أخرى فما كان يرمى تعريفنا للظاهرة الاجتماعية إلا تحديد الفرق بين كل من الشعور الاجتماعى والشعور الفردى » . (٢)

هكذا لايعترف دركايم بأن الحياة البشرية ـ ذات الصبغة الاجتماعية ـ يمكن أن تفسر عن طريق نفسية الفرد وطبيعته وكيانه الفردى. وإنما يفسرها وجود « العقل الجمعى » خارق نطاق الأفراد !

ومرة ثانية يقف دركايم من فرويد موقف التقابل الكامل .

ففى كتاب « قواعد المنهج فى علم الاجتماع » يتحدث عن « تطور » الجماعات شأن كل باحث فى علم الاجتماع ـ ولكنه يأبى أن ينسب هذا التطور إلى عنصر من عناصر النفس المفردة :

«ولن نستطيع معرفة المصدر الذى تنبع منه هذه التيارات الاجتماعية، إلا إذا صعدنا فى مجراها حتى منابعها الأولى، وحينئذ يجب علينا أن نلاحظ الظواهر الاجتماعية فى ذاتها.. ويجب أن ندرس هذه الظواهر من الخارج، على أنها أشياء خارجية .. ولئن خيل إلينا أن وجود هذه الظواهر خارج شعور الأفراد ليس إلا وجودا بحسب الظاهر، فسوف يتبدد هذا الشك كلما تقدم علم الاجتماع. وسيرى المرء حينئذ كيف تقتحم الظاهرة الاجتماعية الخارجية الشعور الداخلى للأفراد » . (٣)

ومع ذلك .!

---

(١) المرجع السابق : ١٦٦ . (٢) المرجع السابق : ١٦٨ ـ ١٦٩ . (٣) المرجع السابق : ٦٦ .

أهى مصادفة تلك التى يتحدث بها عن الدين والأخلاق؟!

« فمن هذا القبيل أن الناس يفسرون عادة نشأة النظام الأسرى بوجود العواطف التى يكنها الآباء للأبناء، ويشعر بها الأبناء تجاه الآباء، كما يفسرون نشأة الزواج بالمزايا التى يحققها لكل من الزوجين وفروعهما، والألم بما يحدث من غضب الفرد إذا أصيبت مصالحه بضرر جسيم. وترجع الحياة الاقتصادية فى نهاية الأمر ــ كما يفهمها ويفسرها الاقتصاديون، وبخاصة أصحاب المذهب المحافظ ــ إلى هذا العامل الفردى البحت، وهو الرغبة فى تحصيل الثروة. وليس الأمر على خلاف ذلك فيما يتعلق بالظواهر الخلقية . فإن الأخلاقيين يتخذون واجبات المرء نحو نفسه أساسا للأخلاق . وكذا الأمر فيما يتعلق بالدين، فإن الناس يرون أنه وليد الخواطر التى تثيرها القوى الطبيعية الكبرى أو بعض الشخصيات الفذة لدى الإنسان .. إلخ .. ولكن ليس من الممكن تطبيق هذه الطريقة على الظواهر الاجتماعية، اللهم إلا إذا أردنا تشويه طبيعتها ! » .

« ومن هذا القبيل أن بعض هؤلاء العلماء يقول بوجود عاطفة دينية فطرية لدى الإنسان، وبأن هذا الأخير مزود بحد أدنى من الغيرة الجنسية، والبر بالوالدين، ومحبة الأبناء، وغير ذلك من العواطف ، وقد أراد بعضهم تفسير نشأة كل من الدين والزواج والأسرة على هذا النحو. ولكن التاريخ يوقفنا على أن هذه النزعات ليست فطرية فى الإنسان ! » .

« وحينئذ فإنه يمكن القول بناء على الرأى السالف بأنه لاوجود لتفاصيل القواعد القانونية والخلقية فى ذاتها ، إذا صح هذا التعبير .. ومن ثم فليس من الممكن تبعا لهذا الرأى، أن تصبح مجموعة القواعد الخلقية التى لاوجود لها فى ذاتها موضوعا لعلم الأخلاق ! » (١) .

واضح ؟ !

إن الدين ليس شيئا فطريا ! وكذلك الزواج والأسرة ! والقواعد الخلقية لاوجود لها!

ولن نناقش هنا دركايم ! لن نناقش أسطورة « العقل الجمعى » القائم خارج نطاق الأفراد والمخالف لكيان الأفراد، والذى يقهرهم من الخارج على غير رغبة منهم ولااستعداد فطرى !

ولكننا نثبت فقط ما حول هذه الأسطورة من الحقائق :

---

(١) المرجع السابق : ٥٩ ــ ٦٠ .

لقد أخذ دركايم كثيرا عن دارون :

أخذ عنه بادئ ذى بدء فكرة التطور الدائم الذى يُلْغِى فكرة الثبات !

وأخذ عنه فكرة «القهر الخارجى» الذى يقهر الفرد على غير رغبة ذاتية منه فيطوّره!

وأخذ عنه التفسير الحيوانى للإنسان، فهو لا يفتأ يستشهد فى كل حالة بما يحدث فى عالم الحيوان :

« أضف إلى ذلك أنه لم يقم قط برهان على أن الميل إلى الاجتماع كان غريزة وراثية وجدت لدى الجنس البشرى منذ نشأته، وإنه لمن الطبيعى جداً أن ننظر إلى هذا الميل على أنه نتيجة للحياة الاجتماعية التى تشربت بها نفوسنا على مر العصور والأحقاب. وذلك لأننا نلاحظ فى الواقع أن الحيوانات تعيش جماعات أو أفرادا تبعا لطبيعة مساكنها التى توجب عليها الحياة فى جماعة أو تصرفها عن هذه الحياة »[١].

« ولكن أليس معنى ذلك أن «كونت» يفسر الماء بالماء، وأنه يشرح التقدم بوجود ميل فطرى يدفع الإنسان إلى التقدم الذى لايعدو أن يكون سوى فكرة ميتافيزيقية ليس ثمة مايدل على وجودها بحسب الواقع؟ وذلك لأن الفصائل الحيوانية ـ بما فى ذلك الفصائل الراقية منها كل الرقى ـ لاتشعر قط بهذه الحاجة التى تدفعها إلى التقدم » ..[٢] إلخ .

ولم يقل دارون بطبيعة الحال شيئا مما قاله دركايم، ولاكان من شأنه أن يقول . ولكن هذا اليهودى أخذ الإيحاء الحيوانى لنظريته، ومده مدة واسعة ، فشملت الحياة كلها، تحت ستار من البحث « العلمى » فى علم الاجتماع .

ثم إنه ـ فى جولته الواسعة فى علم الاجتماع ـ قد عنى عناية خاصة بأن يقول : إن الدين ليس فطرة !

والزواج ليس فطرة !

والأخلاق ليست قيمة ذاتية، ولا هى ثابتة على وضع معين ، فإنما تأخذ صورتها من المجتمع الذى توجد فيه، فإن « المجتمع » هو الأصل في كل الظواهر الاجتماعية ، وليس «الإنسان» .

---

(١) المرجع السابق : ١٧٣ .　　(٢) المرجع السابق: ١٧٦ .

التطـور والعداء للدين والأخلاق :

ومن حصيلة هذا كله حدثت حركات ضخمة فى المجتمع الغربى فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

لقد التقت توجيهات اليهود الثلاثة ــ وغيرهم بطبيعة الحـال ، ولكنهـم هـم فى المقدمـة ــ التقت عند نقط رئيسة، متصلة ومتصاحبة :

الحملة على الدين والأخلاق والتقاليد، ونفى القداسة عنها ، وتشويه سمعتها أو التشكيك فى قيمتها !

والقيام بهذه الحملة باسم « العلم » والبحث العلمى !

والربط بين هذا التحلل الدينى والانحلال الخلقى وبين « التطور » !

والإيحاء بأن هذا التحلل والانحلال أمر « حتمى » لأن التطور حتمى لاقبل لأحد بوقفه عن طريقه المحتوم !

تقول بروتوكولات حكماء صهيون :

« لقد رتبنا نجاح دارون وماركس ونيتشه بالترويـج لآرائهم . وإن الأثر الهدام للأخلاق الذى تنشئه علومهم فى الفكر غير اليهودى واضح لنا بكل تأكيد » !

ونيتشه فيلسوف ألمانى نادى فى تشنج هستيرى بفكرة الإنسان الأعلى ! و« موت الإله » ! وهو يعفى هذا الإنسان من التقيد بالأخلاق المسيحية لأنها أخلاق الأذلاء ! ومن ثم تجد فيه « بروتوكولات حكماء صهيون » بغيتها المنشودة !

ولقد حدث بالفعل ذلك الأثر الهدام للأخلاق !

وسرت فى الجماهير لوثتان معا فى ذات الوقت :

لوثة التطور !

ولوثة العداء للدين والأخلاق !

وربما برز اسم فرُويد فى هذا الأثر المدمِّر أكثر من زميليه الآخرين، لأن آراءه أخذت « شعبية » واسعة النطاق ، بينما بقى الآخران ــ وخاصة دركايم ــ فوق مستوى الجماهير. ولكن الحصيلة النهائية للوثة التطور ولوثة العداء للدين والأخلاق ترد لهم جميعا، وإن تفاوتت النسب و « حقوق التأليف » بين أعضاء الثالوث !

لقد صارت « الموضة » هى التطور . ومالا يتطور بذاته ينبغى أن يطور بالقوة !

إنه لاينبغى أن يظل شىء على الإطلاق ثابتا فى كل الأرض . لا الدين ولا فكرة الله. ولا الأخلاق . ولا التقاليد. ولا القيم. ولا الروابط الاجتماعية. لا شىء .. لا شىء على الإطلاق !

ينبغى أن نتطور . وأن نتحرر من السكون الميت والثبات المعيب !

ينبغى أن نحطم قيود الأخلاق ! فهى قيد يعوق التطور. وقد تقيدنا بها فى الماضى فى المجتمع الزراعى، فينبغى أن نطرحها اليوم فى المجتمع الصناعى المتطور (ماركس) !

أو تقيدنا بها نتيجة الجهل الخطير بحقيقة النفس الباطنية، وبأن الأخلاق « كبت » ضار بكيان الإنسان (فرويد) !

أو تقيدنا بها جهلا منا بأنه لاتوجد حقيقة ثابتة للقيم الخلقية، وإنما هى تتطور بتطور الإنتاج (ماركس) !

أو بتطور حالة المجتمع (دركايم) !

وينبغى أن نحطم الدين ! فهو قيد آخر يعوق التطور ! وقد ورثناه من أسلافنا فى عماية وجهالة وجمود وتأخر، وقد كان هذا كله يناسب المجتمع الزراعى المتأخر، ونحن اليوم فى المجتمع الصناعى المتطور الذى لايطيق هذه الخزعبلات (ماركس)!

أو قدكان هذا يناسب عصر الجهالة السابق، يوم كنا نظن الدين شيئا له قداسة، منزلا من السماء، قبل أن نعرف أنه كبت جنسى ضار مؤذ منفر (فرويد) !

أو يوم ظننا ــ خطأ منا وجهالة ــ أنه فطرة إنسانية (دركايم) !

ينبغى أن ننشئ أنفسنا إنشاء فى المجتمع الجديد .. المتطور .. المتحرك .. الوثاب !

ينبغى أن ننطلق مع وثباته الظافرة بلا دين ! بلا خلق ! بلا تقاليد ! فهذا هو السبيل الوحيد للتقدم الصحيح ! (اليهود الثلاثة !) .

المرأة والجنس:

وتركزت الفتنة كلها فى « تحرير المرأة » على حد تعبيرهم !

فقد كانت القوى الشريرة كلها التى تعمل فى الأرض تعلم أنه لا وسيلة لإفساد الأمم

كلها إلا أن تخرج المرأة إلى الطريق فتنة للرجل ، لكى تفسد أخلاقه وتنهار !

ينبغى بأى ثمن أن تخرج المرأة إلى الطريق !

تخرج بحجة الاستقلال الاقتصادى ..

تخرج بحجة ممارسة حقها فى الحياة ...

تخرج بحجة التعليم أو بحجة العمل ..

تخرج « للاستمتاع » !

المهم أن تخرج ولكن أهم من ذلك أن تخرج فى صورة إغراء !

إنها إن خرجت تتعلم أو تعمل أو تمارس حقها فى الحياة ، وهى محتشمة متحفظة، محافظة على أخلاقها، وعلى طبيعتها « المنزلية » بمعنى الرغبة فى « الاستقرار » فى أسرة حين تسنح الظروف .. فلا فائدة إذن من كل « التعب » الذى تعبناه في إفساد البشرية !

ينبغى أن تخرج المرأة فى صورة تفتن الرجل وتغريه .. وإلا فما الفائدة ؟ ولكن كيف السبيل ؟

السبيل هو الدعوة إلى ذلك !

يكتب الكتاب !

ويكتب الصحفيون !

ويكتب القصاصون !

السبيل هو السينما !

تمثّل الأفلام الداعرة العارية الداعية إلى الفساد !

السبيل هو الإذاعة والتليفزيون (على التوالى) !

السبيل هو بيوت الأزياء !

السبيل هو صناعة أدوات الزينة !

السبيل ــ بكل سبيل ــ هو إيجاد صورة من « الحياة الاجتماعية » لا تستغنى عن المرأة الفاتنة المغرية ! ــ بهجة المجتمع ! ــ وإيجاد تصور للحياة لا يستغنى عن المرأة الفاتنة المغرية « لتشارك » الرجل فى حمل الأعباء، وإيجاد « واقع عملى » لا يستغنى عن المرأة الفاتنة المغرية كجزء واقعى من الحياة .

ووجد كل ذلك بالفعل !

واستراحت القوى التى تعمل لإفساد البشرية .. وطلبت المزيد !

وجاء المزيد ــ قصدا أم عرضا ؟ ــ بالحربين العالميتين !

قتل فى الحرب الأولى عشرة ملايين من الشباب، وفى الثانية حوالى أربعين !

ووجدت ــ بعددهم ــ أسر بلا عائل ، ونساء بلا رجال !

وخرجت المرأة ــ راضية أو مكرهة ــ تعمل وتبحث عن الجنس ! وحدث مزيد من « التحرر » .. من انحلال الأخلاق !

وصار الروتين العادى فى الحياة الغربية أن تعمل كل فتاة .. وأن يكون لها صديق ــ أى عشيق ــ تمارس معه نشاط الجنس، كاملا فى أغلب الأحيان، روتين عادى لايستنكر ! لايفكر أحد فى استنكاره على الإطلاق. إلا المجانين! الذين يظنون أنه يوجد دين ! أو أخلاق ! أو تقاليد !

المجانين الجهلاء الرجعيون المتزمتون المتحجرون المتعفنون .. الذين يعيشون بعقلية القرون الوسطى .. الذين يحجبون عن أعينهم النور.. الذين يريدون إرجاع الساعة إلى الوراء .. الذين لايعرفون أنه التطور .. التطور الحتمى الذى لاقبل لأحد بوقفه .. التطور الذى أحدثه القرن العشرون !

شهادة التاريخ :

وحين يعيش الإنسان فترة من الحياة فإنه يراها مجسمة مضخمة، لأنه يعيش دقائقها وتفصيلاتها وجميع لحظاتها، لحظة إثر لحظة، فيراها ــ من ثم ــ أضخم من أى فترة أخرى من التاريخ !

وهذا أمر « بشرى » من جميع جوانبه !

ومن ثم فنحن محتاجون إلى قراءة التاريخ !

فلنسمع شهادة التاريخ !

فى اليونان :

يقول الأستاذ المودودى : [1] أرقى الأمم القديمة حضارة، وأزهرها تمدنا فى التاريخ،

---

(١) الحجاب : ١٢ ومابعدها بتصرف .

هم أهل اليونان، وفى عصرهم البدائى كانت المرأة فى غاية من الانحطاط وسوء الحال، من حيث نظرية الأخلاق، والحقوق القانونية، والسلوك الاجتماعى جميعا !

فلم يكن لها فى مجتمعهم منزلة أو مقام كريم . وكانت الأساطير (mythology)

اليونانية قد اتخذت امرأة خيالية تسمى (باندورا) (pandora) ينبوع جميع آلام الإنسان ومصائبه، كما جعلت الأساطير اليهودية حواء : العين التى تنشق منها جداول الآلام والشدائد !

وغير خاف على أحد ما كان لهذه الأساطير اليهودية الشنيعة عن حواء من تأثير عظيم فى سلوك الأمم اليهودية والمسيحية قبل المرأة ، وماكان لها من مفعول قوى فى حقول القانون والأخلاق والاجتماع عند هؤلاء الشعوب !

وكذلك أو دونه بقليل كان تأثير الأسطورة اليونانية عن (باندورا) فى عقولهم وأذهانهم . فلم تكن المرأة عندهم إلا خلقا من الدرك الأسفل، فى غاية من المهانة والذل فى كل جانب من جوانب الحياة الاجتماعية. وأما منازل العز والكرامة فى المجتمع فكانت كلها مختصة بالرجل !

وبقى هذا السلوك قبل المرأة في أول عهدهم بالنهضة المدنية ثابتا على حاله، ربما تخللته تعديلات قليلة. فإنه كان من تأثير ذيوع العلم وانتشار أنوار الحضارة أن ارتفعت مكانة المرأة فى المجتمع ، وأصبحت أحسن حالا، وأرفع منزلة، من ذى قبل ، وإن بقيت منزلتها القانونية على حالها لم تتبدل. فهى أصبحت ربة البيت، منحصرة واجباتها فى حدوده، وأصبح لها فى داخله سلطة ونفوذ تام .. وكان عفافها وتصونها من أغلى وأنفس مايملك، ومما ينظر إليه بعين التقدير والتعظيم .

وأيضا كان الحجاب شائعا فى البيوتات العالية . فكانوا يبنون بيوتهم على قسمين :

قسم للنساء، وآخر للرجال .

وما كان نسوتهم يشاركن فى المجالس والأندية المختلطة، ولايبرزن فى الأماكن العامة. وكان يعد زواج المرأة وملازمتها لزوجها دون غيره من أمارات النجابة والشرف ولأمثالها كانت الحرمة والمنزلة فى المجتمع .

وبالعكس من ذلك كانوا ينظرون إلى حياة العهر والدعارة نظرة كره وازدراء .. !

هذا فى عصر كانت الأمة اليونانية فيه فى إبان مجدها وعنفوان شبابها وقوتها، وكانت تنمو صعدا إلى الرقى والكمال.

ولا ريب أنه كانت توجد عندهم مفاسد خلقية فى ذلك العصر، إلا أنها كانت منحصرة فى نطاق محدود. وذلك أن الرجال لم يكونوا يطالبون بمثل من العفاف، وطهارة الأخلاق، وذكاء السجية، كانت تطالب بها المرأة وتؤاخذ عليها، بل كانوا يستثنون من التخلق بتلك الأخلاق الحسنة، ولم يكن من المتوقع منهم أن يعيشوا عيشة ذوى العفاف والحشمة. ومن أجل ذلك كانت المومسات جزءا من صميم المجتمع اليونانى لاينفك عنه أبدا، ولايعاب المرء إذا عاشرهن وخادنهن !

ثم جعلت الشهوات النفسية تتغلب على أهل اليونان، ويجرف بهم تيار الغرائز البهيمية، والأهواء الجامحة، فتبوأت العاهرات والمومسات مكانة عالية فى المجتمع لانظير لها فى تاريخ البشرية كله، وأصبحت بيوت العاهرات مركزا يؤمه سائر طبقات المجتمع ، ومرجعا يلجأ إليه الأدباء والشعراء والفلاسفة، فكانت شموسا فى سماء العلم والأدب يدور حولها كواكب الفلسفة والأدب والشعر والتاريخ، وماعداها من الفنون .. بل أصبحن القطب الذى تدور حوله رحى الأمة اليونانية، فما كن يرأسن أندية العلم ومجالس الأدب فحسب ، بل كانت المشاكل السياسية أيضا تحل عقدها ، وتفك معضلاتها بحضرتهن وتحت إشرافهن !

وقد بلغ بهم التعسف فى هذا الشأن أن كانوا يرجعون فى المسائل الرئيسة التى تعلو بها أمة وتسفل، وتحيا لها وتموت، إلى المرأة التى ربما لاترضى أن تعاشر رجلا بعينه أكثر من ليلة أو ليلتين !

ثم زاد أهل اليونان حبهم للجمال وتذوقهم المفرط له تماديا فى الغى، وارتطاما فى حمأه الرذائل، وأضرم فى قلوبهم ناراً للشهوة لا تخمد. فالتماثيل ـ نماذج الفن العاريه ـ التى كانوا يظهرون بها وبالافتتان فى صنعها وإتقانها ذوقهم هذا، كانت هى التى تحرك فيهم الشهوات دوما، وتمد فى غرائزهم البهيمية !

ولايخطر لهم ببال أن الاستسلام للشهوات شىء ذميم فى قانون الأخلاق والاندفاع وراء تيار الأهواء عار وهجنة !

وتبدلت مقاييس الأخلاق عندهم إلى حد جعل كبار فلاسفتهم، وعلماء الأخلاق عندهم، لايرون فى الزنى وارتكاب الفحشاء غضاضة يلام عليها المرء ويعاب . وأصبح عامتهم ينظرون إلى عقد الزواج نظرة من لايهتم به، ولايرى إليه من حاجة ، وقلما يرون بأسًا بأن يعاشر الرجال المرأة ويخادعنها علنا من غير عقد ولا نكاح !

فكانت النتيجة أن خضعت لأخلاقهم وغرائزهم الشهوانية هذه ديانتهم أيضا، وانتشرت فيهم عبادة أفروديت (aphrodite) التى كان من قصتها عندهم فى الأساطير (mgthology) أنها خادنت ثلاثة آلهة، مع كونها زوجة إله خاص !

وأيضا كان من أخدانها رجل من عامة البشر، علاوة على تلك الآلهة .. ومن بطنها تولد كيوبيد (kupid) إله الحب، نتيجة اتصالها بذلك الخدن البشرى !

ومارأيك فى أخلاق أمة وانحطاطها المعنوى والخلقى، اتخذت من هذه الطباع (character) رمزا للكمال ، بل إلها يعبد ، ويقدم له جميع آداب العبودية والذل والخنوع ؟!

هذه ، ولاريب، درجة من الانحطاط الخلقى إذا تردت فيها أمة، لم تتمكن من النهوض مرة أخرى !

وفى مثل هذا العصر البالغ من الانحطاط أسفله (بام مارك) وفى إيران (المزدكية) وأيضا فى مثل هذا العصر نفسه، أصبحت الفحشاء والدعارة ينظر إليهما بعين التقديس والإجلال فى « بابل»، فلم تمض على ذلك عشية أو ضحاها حتى آل أمرها إلى الانقراض، وأصبح أمرها من خبر كان وأمس الدابر !

ولما انتشرت عبادة أفروديت فى اليونان، أصبحت مواخير الدعارة، وأماكن الفجور مركز للعبادة، وأصبحت المومسات متنسكات وخوادم للمعابد، وعظم شأن الزنى، إلى أن ألبسوه كساء من العمل الدينى المبرور !

ثم ظهرت الغريزة البهيمية فى أهل اليونان بمظهر آخر، هو أن انتشرت فيهم سوأة قوم لوط انتشارا كاد يقضى على الأخضر واليابس، ورحبت بها الديانة والأخلاق أيضا!

ومما هو حرىِ بالذكر أننا لانرى لهذه السوأة المنكرة أثرا فى عصر هوميروس وهسيود، ولكنه لما ترقت المدينة، وأخذت فى تزيين العرى، واتباع الشهوات بالأسماء

الجذابة، كالفن وتذوق الجمال (aesthatictaste) التهبت الغرائز الشهوانية فى القوم التهابا جعلهم يتنكبون الطريق الفكرى، ويتخذون لإرواء غليل شهواتهم طريقا تأباه الفطرة، وتمجه الطباع السليمة. وساعدهم على ذلك حذاق الفن بإبراز هذه العاطفة فى التماثيل. وشهد علماء الأخلاق عندهم بأن هذه (العلاقة) آصرة للصداقة وثيقة بين الرجلين. واليونانيان اللذان هما أول من عظمتهم الأمة وأكرمتهم ببناء تماثيلهم هما: هرموديس وارستوجيتن اللذان جمع بينهما ذلك الحب المنكر الذى تأباه الفطرة البشرية !

وبعد ، فالتاريخ شاهد بأن اليونان لم يكن من نصيبهم المجد والرقى بعد ذلك مرة أخرى !

فى الرومان :

والذين تسنموا ذروة المجد والرقى فى العالم بعد اليونانيين هم الرومان، وفى هذه الأمة أيضا نرى تلك السلسلة من الصعود و الهبوط التي قد شاهدناها فى اليونان .. !

فى أوربا المسيحية :

ثم جاء عصر النصرانية فى أوربا، وأرادت أن تتدارك الفوضى الخلقية .. إلا أن الفكرة التى كان يحملها المسيحيون عن علاقة ما بين الرجل والمرأة كانت قد جاوزت حد التطرف فى جانب ، وكانت حربا على الفطرة البشرية في جانب آخر .. !

فى أوربا الجديدة :

ولما نهض فلاسفة أوربا وأولوا الرأى والعلم منهم فى القرن الثامن عشر، ورفعوا عقيرتهم لحماية حقوق الفرد والمجتمع، ونفخوا فى أبواق الحرية الفردية، كان بين أيديهم ذلك النظام التمدنى الفاسد الذى كان تولد بتفاعل الاتحاد الثلاثى من نظم الأخلاق وفلسفة الحياة المسيحيين ونظام الإقطاعية (Feudalsgstem) وقيد الروح البشرية بقيود مثقلة غير طبيعية ..

وفى القرن التاسع عشر كان الخروج على جميع المبادئ الخلقية .

وفى القرن العشرين كانت سورة هذه الإباحية قد انتهت إلى غايتها القصوى ..

عوامل شيطانية ثلاثة :

وذكرت مجلة أمريكية الأسباب التى لاتزال تؤدى إلى رواج الفحشاء وقبولها بالكلمات الآتية :

عوامل شيطانية ثلاثة، يحيط ثالوثها بدنيانا اليوم، وهى جميعها فى تسعير سعير لأهل الأرض:

أولها: الأدب الفاحش الخليع، الذى لا يفتأ يزداد فى وقاحته ورواجه بعد الحرب العالمية بسرعة عجيبة !

وثانيها : الأفلام السينمائية ، التى لاتذكى فى الناس عواطف الحب الشهوانى فحسب، بل تلقنهم دروسا عملية فى بابه !

وثالثها: انحطاط المستوى الخلقى فى عامة النساء،الذى يظهر فى ملابسهن، بل فى عريهن، وفى إكثارهن من التدخين، واختلاطهن بالرجال بلا قيد ولا التزام !

هذه المفاسد الثلاثة فينا إلى الزيادة والانتشار بتوالى الأيام، ولابد أن يكون مآلها زوال الحضارة والاجتماع النصرانيين وفناءهما آخر الأمر، فإن نحن لم نحد من طغيانها، فلا جرم أن يأتى تاريخنا مشابها لتاريخ الرومان ومن تبعهم من سائر الأمم الذين قد أوردهم هذا الاتباع للأهواء والشهوات موارد الهلكة والفناء مع ما كانوا فيه من خمور ونساء، ومشاغل رقص ولهو وغناء !

هذه الأسباب الثلاثة التى قد طبقت أجواء التمدن والاجتماع ـ كما يقول الأستاذ المودودى (١) ـ لاتنفك أبدا عن تحريك العواطف فى كلّ شاب وشابة يجرى فى عروقه ولو قليل من الدم الحار، وماكثرة الفواحش هذه إلانتيجة لازمة لهذا التحريك المستمر !

وسبق أن ذكرنا دور الأساطير اليهودية الشنيعة فى هذا الشأن !

شهادة من كاتب غربى :

يقول« ول ديورانت » فى كتابه « مباهج الفلسفة » : (٢)

إننا نواجه مرة أخرى تلك المشكلة التى أقلقت بال سقراط. نعنى كيف نهتدى إلى أخلاق طبيعية تحل محل الزواجر العلوية التى بطل أثرها فى نفوس الناس ؟ إننا نبدد تراثنا الاجتماعى بهذا الفساد الماجن ! (٣) .

واختراع موانع الحمل وذيوعها هو السبب المباشر فى تغير أخلاقنا. فقد كان القانون

(١) المرجع السابق : ١٠٥ ـ ١٠٦ .
(٢) جاهلية القرن العشرين : ٢٠٩ ومابعدها نقلا عن : المرجع الأصلى.
(٣) المرجع الأصلى : ١ : ٦ .

الأخلاقى قديما يقيد الصلة الجنسية بالزواج، لأن النكاح يؤدى إلى الأبوة، بحيث لا يمكن الفصل بينهما، ولم يكن الوالد مسئولا عن ولده إلا بطريق الزواج. أما اليوم فقد انحلت الرابطة بين الصلة الجنسية وبين التناسل وخلقت موقفا لم يكن آباؤنا يتوقعونه، لأن جميع العلاقات بين الرجال والنساء آخذة فى التغير نتيجة لهذا العامل ! (١)

فحياة المدنية تفضى إلى كل مثبط عن الزواج، فى الوقت الذى تقدم فيه إلى الناس كل باعث على الصلة الجنسية، وكل سبيل يسهل أداءها. ولكن النمو الجنسى يتم مبكرا عما كان قبل ، كما يتأخر النمو الاقتصادى. فإذا كان قمع الرغبة شيئا عمليا ومعقولا فى ظل النظام الاقتصادى الزراعى فإنه الآن يبدو أمرا عسيرا أو غير طبيعى فى حضارة صناعية. أجلت الزواج حتى بالنسبة للرجال، حتى لقد يصل إلى سن الثلاثين ولا مفر من أن يأخذ الجسم فى الثورة، وأن تضعف القوة على ضبط النفس عما كان فى الزمن القديم. وتصبح العفة التى كانت فضيلة موضعا للسخرية، ويختفى الحياء الذى كان يضفى على الجمال جمالا، ويفاخر الرجال بتعداد خطاياهم، وتطالب النساء بحقها فى مغامرات غير محدودة على قدم المساواة مع الرجال. ويصبح الاتصال قبل الزواج أمرا مألوفا، وتختفى البغايا من الشوارع بمنافسة الهاويات لا برقابة البوليس. لقد تمزقت أوصال القانون الأخلاقى الزراعى، ولم يعد العالم المدنى يحكم به ! (٢)

وواضح أن الكاتب ـ كما يقول الأستاذ محمد قطب ـ يفسر الأمور على هدى التفسير المادى للتاريخ، فيفسر التحلل الخلقى بالتطور الاقتصادى. ولكنه أغفل حقيقة هامة ينبغى الإشارة إليها والتوكيد عليها .. إن الدولة الشيوعية التى تملك أرزاق الناس « وتحررهم » من سلطان رأس المال .. لم توجه الشبان فى بلادها إلى الزواج المبكر الذى يمنع الفساد الخلقى، رغم أنها ـ فيما تزعم ـ رفعت لعنة الضرورة الاقتصادية عن كاهل الناس ! إن الأمر ليس تطورا اقتصاديا فى حقيقته، ولكنه توجيه مسموم لتدمير البشرية !

ويقول « ول ديورانت » : ولسنا ندرى مقدار الشر الاجتماعى الذى يمكن أن نجعل تأخير الزواج مسئولا عنه. ولا فى أن بعض هذا الشر يرجع إلى مافينا من رغبة فى التعدد لم تهذب. ولكن معظم هذا الشر يرجع فى أكبر الظن فى عصرنا الحاضر إلى التأجيل غير الطبيعى للحياة الزوجية ومايحدث من إباحة بعد الزواج فهو فى الغالب ثمرة التعود قبله . وقد نحاول فهم العلل الحيوية والاجتماعية فى هذه الصناعة المزدهرة، وقد نتجاوز عنها

(١) المرجع الأصلى : ١ ـ ١٢٠ .

(٢) المرجع الأصلى : ١٢٦ : ١٢٧ .

باعتبار أنها أمر لامفر منه فى عالم خلقه الإنسان (!) وهذا هو الرأى الشائع لمعظم المفكرين فى الوقت الحاضر . غير أنه من المخجل أن نرضى فى سرور عن صورة نصف مليون فتاة أمريكيه يقدمن أنفسهن ضحايا على مذبح الإباحية وهى تعرض علينا فى المسارح وكتب الأدب المكشوف، تلك التى تحاول كسب المال باستثارة الرغبة الجنسية فى الرجال والنساء المحرومين ـ وهم فى حمىّ الفوضى الصناعية ـ من حِمي الزواج ورعايته للصحة .

ولايقل الجانب الآخر من الصورة كآبة. لأن كل رجل حين يؤجل الزواج يصاحب فتيات الشوارع ممن يتسكعن فى إبتذال ظاهر. ويجد الرجل لإرضاء غرائزه الخاصة فى هذه الفترة من التأجيل، نظاما دوليا مجهزا بأحدث التحسينات ، ومنظما بأسمى ضروب الإدارة العلمية. ويبدو أن العالم قد ابتدع كل طريقة يمكن تصورها لإثارة الرغبات وإشباعها . (١)

وأكبر الظن أن هذ التجدد فى الإقبال على اللذة قد تعاون أكثر مما نظن مع هجوم داون على المعتقدات الدينية. وحين اكتشف الشبان والفتيات ـ وقد أكسبهم المال جرأة ـ أن الدين يشهر بملاذهم، التمسوا فى العلم ألف سبب وسبب للتشهير بالدين ! (٢)

ولما كان زواجهما ٌ[الرجل والمرأة فى المجتمع الحديث] ليس زواجا بالمعنى الصحيح ـ لأنه صلة جنسية لارباط أبوة ـ فإنه يفسد لفقدانه الأساس الذى يقوم عليه ومقومات الحياة . يموت هذا الزواج لانفصاله عن الحياة وعن النوع. وينكمش الزوجان فى نفسيهما وحيدين كأنهما قطعتان منفصلتان. وتنتهى الغيرة الموجودة فى الحب إلي فردية يبعثها ضغط حياة المساخر. وتعود إلى الرجل رغبته الطبيعية فى التنويع، حين تؤدى الألفة إلى الاستخفاف. فليس عند المرأة جديد تبذله أكثر مما بذلته ! (٣)

لندع غيرنا من الذين يعرفون يخبرونا عن نتائج تجاربنا. أكبر الظن أنها لن تكون شيئا نرغب فيه أو نريده، فنحن غارقون فى تيار من التغيير، سيحملنا بلاريب إلى نهايات محتومة لاحيلة لنا فى اختيارها. وأى شىء قد يحدث مع هذا الطوفان الجارف من العادات والتقاليد والنظم، فالآن وقد أخذ البيت فى مدننا الكبرى فى الاختفاء، فقد فقد الزواج القاصر [المقصور] على واحدة جاذبيته الهامة. ولاريب أن زواج المتعة سيظهر بتأكيد أكثر فأكثر، حيث لايكون النسل مقصودا. وسيزداد الزواج الحر، مباحا كان أم غير مباح. ومع أن حريتهما إلى جانب الرجل أميل فسوف تعتبر المرأة هذا الزواج أقل

(١) المرجع الأصلى : ١٢٧ ـ ١٢٨ . (٢) المرجع الأصلى ١٣٤ . (٣) المرجع الأصلى : ٢٢٥ .

شرا من عزلة عقيمة تقضيها في أيام لايغازلها أحد. سينهار « المستوى المزدوج » وستحث المرأة الرجل بعد تقليده فى كل شىء على التجربة قبل الزواج سينمو الطلاق، وتزدحم المدن بضحايا الزيجات المحطمة. ثم يصاغ نظام الزواج بأسره فى صور جديدة أكثر سماحة. وعندما يتم تصنيع المرأة ويصبح ضبط الحمل سرا شائعا فى كل طبقة يضحى الحمل أمرا عرضا فى حياة المرأة ، أو تحل نظم الدولة الخاصة بتربية الأطفال محل عناية البيت .. وهذا كل شىء[1] !

جاهلية القرن العشرين :

تلك شهادة من كاتب غربى ، جديرة بأن تغنينا عن التعليق !

إن المفاسد التى يشرحها الكاتب، والتى نجمت فى النفس والمجتمع عن التحلل الجنسى لجديرة بأن تفتح عيوننا على شناعة الجاهلية الحديثة فى هذا الشأن .. المنذرة بتدمير كيان الإنسان في مجموعه، لافى المجال الضيق الذى يعرف عادة « بالأخلاق » !

إن هذا التحلل الجنسى لم يترك فى النفس والمجتمع ناجيا من الفساد !

ماذا بقى بعد الصورة الكريهة المنفرة التى عرضها هذا الكاتب ؟!

ومما تجدر الإشارة إليه أن المؤلف كتب كتابه هذا سنة ١٩٢٩ ! ونحن الآن فى أواخر النصف الثانى من القرن العشرين ، قرن الجاهلية الكبرى، نشاهد بأعيننا أن كل ماتنبأ به الكاتب قد حدث، وانتشر فى كل بقاع الأرض، واستشرى بحيث لم تعد الجاهلية ذاتها تملك رده لو أرادت. لأن الزمام أفلت من أيديها، ولم يعد لها على الفساد سلطان !

ولكن تلك المقتطفات التى نقلناها هنا لم تشر إلى كل أمور الفساد ! أولم تفصلها !

شباب العالم فى طريق الضياع :

ونشرت جريدة « أخبار اليوم » فى مصر فى عددها الصادر فى ١٢ مايو ١٩٦٢ تحقيقا صحفيا بهذا العنوان « شباب العالم فى طريق الضياع !» جعلت مقدمته هكذا :

إلى أين يتجه شباب العالم؟!

فى أمريكا يرتفع ترمومتر الانحراف بين الشباب !

---

(١) المرجع الأصلى : ٢٣٥ ـ ٢٣٦ .

وفى بريطانيا تتألف عصابات من المراهقين للسطو وتدخين الحشيش !

وفى سويسرا يتزايد الانحلال !

وفى روسيا يجتمع المجلس الأعلى للسوفيت ليبحث مشكلة انحراف الشباب الروسى !

لقد أبرقت « أخبار اليوم » إلي مندوبيها ومراسليها فى عواصم العالم، وطلبت منهم صورة كاملة عن الانحراف الجارف الذى يهدد شباب العالم !

ونقل الأستاذ محمد قطب نص التحقيق الذى استغرق عشر صفحات [١]، وعلق عليه بقوله :

إنها أمور خطيرة جدا، تلك التى تقولها شهادة القرن العشرين !

إنها تقول أولا: إن هذا التحلل الخلقى ليس « تطورا » وإنما هو انحراف !

وتقول ثانيا : إنه انحراف ضار بالكيان البشرى مؤد إلى الدمار !

وتقول بالتالى : إن هناك فطرة للإنسان، تتأذى من كل شىء لا يلائم طبيعتها، وتمرض من استمرار تعاطيه !

وتقول كذلك : إن هذه الفطرة ثابتة، فما كان يؤذيها ويدمرها قبل ألفى عام يؤذيها ويدمرها بعد مرور الأجيال الطوال، ولم يحدث فيها « تطور » تجعلها تصح على ماكانت تمرض به فى تلك الأزمان. بل هى مازالت تمرض به على نفس الصورة وبنفس المقدار !

وتقول أخيرا : إن الجانب الخلقى ـ على الأقل ـ من حياة الإنسان، ذو مقياس ثابت يقاس به فى جميع الأجيال ، فما كان صوابا فى علاقات الناس ـ وعلاقات الجنسين بصفة خاصة ـ قبل ألفى عام، مايزال هو الصواب، وماكان خطأ وانحراف فى تلك العلاقات مايزال هو الخطأ والانحراف ، بعد كل « التقدم » العلمى ، و« التطور » الاجتماعى والاقتصادى والسياسى و« التحور » النفسى فى ألفين بل ألوف من الأعوام !

وخلاصة ذلك كله أن أى نظام لحياة البشرية ينبغى أن يجعل فى حسابه ذلك المقياس الثابت للأخلاق ، مهما كانت مرونته فى الجوانب المادية والاقتصادية والاجتماعية

---

(١) التطور والثبات : ١٦٤ ـ ١٧٤ .

والسياسية، التى ينبغى أن تنمو، وينبغى أن يسمح لها بالنمو فى ظل أى نظام صالح للحياة!

مهنة الدعارة :

وجاء فى جريدة الأخبار المصرية فى عددها الصادر فى ٩مارس ١٩٧٨ مايلى:

اعترفت إسرائيل رسميا. بمهنة الدعارة كمهنة رسمية، بعد أن قبلت مؤسسة التأمينات طلبا تقدمت به إحدى العاهرات الإسرائيليات للسماح لها بدفع التأمينات الاجتماعية على دخلها الذى يبلغ ثلاثة آلاف دولار سنويا، كما ستحصل على اثنى عشر دولارا أيضا كمنحة شهرية لكل طفل تنجبه من مهنتها، وإعانة تبلغ ٧٥٪ من دخلها فى الشهور الثلاثة الأخيرة من الحمل .

أعلن ذلك « موردخاى كوهين » المدير المالى لمؤسسة التأمينات في إسرائيل، وقال:

إن مهمتنا تأمين جميع المهن، والدعارة أقدم مهنة فى التاريخ !

وجاء فى جريدة السياسة الكويتية فى عددها الصادر فى ٢٩ نوفمير ١٩٧٨ ما يلى :

دعت المومسات البريطانيات فى مؤتمرهن الليلة قبل الماضية الزبائن البارزين إلى الإعلان عن أنفسهم على الملأ، والتوقف عن التنديد علنا بما يمارسونه سرا !

وكانت الجمعية البريطانية للمومسات قد هددت فى الأسبوع الماضى أن تبدأ بنشر أسماء الزبائن الذين قالت إن بينهم سياسيين بارزين، ورجال دين ، ورؤساء بوليس !

وقد عقد المؤتمر لدعم مطالب الجمعية بتنظيم مهنة البغاء على أساس شرعى ، وحضر المؤتمر حوالى ٢٠٠ شخص، بينهم مومسات ، ورجال دين، ودعاة لحقوق المرأة، وتليت فى المؤتمر رسائل تأييد من جمعيات المومسات فى سان فرانسيسكو ونيويورك وباريس .(١)

وهكذا كان دور الثالوث اليهودى فى انحطاط الأخلاق :

ماركس والاقتصاد :

فرويد وعلم النفس !

دركايم وعلم الاجتماع!

(١) العمل والعمال بين الإسلام والنظم الوضعية المعاصرة : ٤٣ ــ ٤٤ .

وهكذا كانت شهادة التاريخ :

فى اليونان !

في الرومان !

فى أوربا المسيحية !

فى أوربا الجديدة !

وهكذا كان دور العوامل الشيطانية الثلاثة !

فى الأدب الفاحش !

والأفلام السينمائية !

وانحطاط المستوى الخلقى !

وأخيرا وليس آخرا !

جاهلية القرن العشرين !

والخطر المحدق بشباب العالم !

ومهنة الدعارة !

وحسبنا أن نذكر مرة أخرى ماجاء فى « بروتوكولات حكماء صهيون ».

يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق فى كل مكان فتسهل سيطرتنا ! إن فرويد منا، وسيظل يعرض العلاقات الجنسية فى ضوء الشمس، لكى لايبقى فى نظر الشباب شىء مقدس، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية، وعندئذ تنهار أخلاقه ! » .

« لقد رتبنا نجاح داروِن وماركس ونيتشه بالترويج لآرائهم ، وإن الأثر الهدام للأخلاق الذى تنشئه علومهم فى الفكر غير اليهودى واضح لنا بكل تأكيد » .

أهـــم المراجـــع

١ـ الأدب المفرد، للبخارى، ط السلفية، القاهرة ١٣٧٥هـ.

٢ـ الإسلام دين عام خالد، للأستاذ محمد فريد وجدى ، ط ثانية القاهرة.

٣ـ إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن القيم، تحقيق الشيخ محمدحامد الفقى، دار المعارف للطباعة والنشر، بيروت، ط ثانية ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م.

٤ـ الإنسان بين المادية والإسلام،للأستاذ محمد قطب،دار الشروق، ط سابعة ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢م.

٥ـ التطور والثبات فى حياة البشرية، للأستاذ محمد قطب، دار الشروق، ط خامسة ١٤٠٣هـ ـ١٩٨٣م.

٦ـ تفسير ابن كثير(تفسير القرآن العظيم) ط دار إحياء الكتب العربية، الحلبى وشركاه.

٧ـ تفسير الطبرى (جامع البيان عن تأويل القرآن) الحلبى،ط ثالثة ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨م.

٨ـ تفسير الطبرى ـ أيضا ـ تحقيق الأستاذ أحمد شاكر،ط دار المعارف،القاهرة.

٩ـ تفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) دار إحياء التراث العربى، بيروت ١٩٦٧م.

١٠ـ تفسير المنار (تفسير القرآن الكريم) للشيخ محمد عبده، تأليف الشيخ محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت.

١١ـ الثقافة الإسلامية ، للمؤلف وآخرين ، جامعة الكويت ، ط أولى ١٤٠٩هـ ـ ١٨٨٩م.

١٢ـ جاهلية القرن العشرين، للأستاذ محمد قطب، دار الشروق.

١٣ـ الحجاب، للأستاذ المودودى، دار الفكر.

١٤ـ حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، للأستاذ عباس العقاد، دار الكتاب العربى، بيروت ط ثالثة ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٦م.

١٥ ـ خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، للأستاذ سيد قطب، الحلبى ١٩٦٥م.

١٦ ـ الخصائص العامة للإسلام، للدكتور يوسف القرضاوى ، الرسالة .

١٧ـ دراسات إسلامية فى العلاقات الاجتماعية والدولية، للدكتور محمد عبد الله دراز، ط دار القلم،الكويت ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

١٨ـ زاد المعاد فى هدى خير العباد ، لابن القيم ، تحقيق الأرنؤوط ، الرسالة، المنار الإسلامية، ط أولى ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

١٩ـ سنن ابن ماجه، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، دار الفكر العربى.

٢٠ـ سنن أبى داود، ط مصر التجارية، الأولى، والمدينة المنورة.

٢١ـ سنن البيهقى (السنن الكبرى) ط دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد ١٢٥٣هـ .

٢٢ـ سنن الترمذى(الجامع الصحيح) ط بولاق ١٢٩٢هـ ، والهند، والحلبى ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

٢٣ـ سنن الدارمى، دار إحياء السنة النبوية.

٢٤ـ سنن النسائى، بشرح السيوطى، وحاشية السنوى، ط دار الكتاب العربى، بيروت.

٢٥ـ السيرة النبوية ، لابن هشام ، تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ، ط حجازى ، والحلبى، القاهرة.

٢٦ـ شبهات حول الإسلام، للأستاذ محمد قطب، دار الشروق ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

٢٧ـ صحيح البخارى، مع فتح البارى، ترقيم الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، الرياض الحديثة.

٢٨ـ صحيح مسلم، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، دار إحياء التراث العربى.

٢٩ـ العمل والعمال بين الإسلام والنظم الوضعية المعاصرة ـ للمؤلف، دار البحوث العلمية،ط أولى، الكويت ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

٣٠ـ عون المعبود: شرح سنن أبى داود، تحقيق الشيخ عبد الرحمن عثمان، السلفية ط ثانية ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

٣١ـ غزوة بنى قريظة، للأستاذ محمد أحمد باشميل، دار الفكر، ط ثانية ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م.

٣٢ـ فتح البارى : شرح صحيح البخارى ، لابن حجر الرياض الحديثة ، البطحاء ، الرياض.

٣٣ـ فقه السيرة، للشيخ محمد الغزالى، تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى، ط دار القلم الثانية، دمشق ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٣٤ـ الفكر الإسلامى وصلته بالاستعمار الغربى، للدكتور محمد البهى، القاهرة.

٣٥ـ فى ظلال القرآن، للأستاذ سيد قطب،دار الشروق ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

٣٦ـ الكتاب المقدس (العهد القديم والجديد) ط بيروت.

٣٧ـ المسئولية الاجتماعية فى الإسلام، للمؤلف، مكتبة المعلا، ط أولى ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٣٨ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمى، بتحقيق العراقى وابن حجر بيروت، ط ثالثة ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

٣٩ـ مسند أحمد، وبهامشه كتاب منتخب كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال، للمتقى الهندى، ط الميمنية. بمصر.

٤٠ـ المسند ، له أيضا ، تحقيق الشيخ أحمد شاكر ، دار المعارف بمصر ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م.

٤١ـ المعجم الوسيط، لمجموعة من المؤلفين، مجمع اللغة العربية، دار إحياء التراث العربى.

٤٢ـ معركة التقاليد، للأستاذ محمد قطب، الشروق.

٤٣ـ المغنى، لابن قدامة، الرياض الحديثة، الرياض.

٤٤ـ منهج الفن الإسلامى، للأستاذ محمد قطب، دار الشروق.

٤٥ـ نفحات رمضان وأثرها فى تكوين الشخصية الإسلامية، للمؤلف، مؤسسة الرسالة، ط أولى ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

ـ وهناك كتب ومطبوعات أخرى أشرنا إلى موضع النقل منها فى حينه.

الفهـــــرس

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة